مكتبة
مؤمن قريش

السيد عباس نورالدين

مبادئ العمل الثقافي

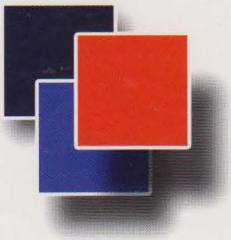

مركز باء للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة
مؤمن قريش

مبادئ العمل الثقافي

السيد عباس نورالدين

مركز باء للدراسات

بيت الكاتب للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى بيروت 2006

www.baabooks.com

مبادئ العمل الثقافي

السيد عباس نورالدين

مركز باء للدراسات

شكر وتقدير

لجميع الذين قرأوا النصوص الأولية وأبدوا الملاحظات القيمة، ولمن ساهم في اخراج واستخراج النصوص من الملفات الصوتية وتحريرها لتصبح جاهزة للكتابة النهائية. وأخص بالذكر كلا من الاختين عزّة فرحات وندى حيدر..

تقديم

شهدت الحرب الباردة في القرن العشرين اهتماما كبيرا بالاسلحة اللينة التي كانت بديلا عن الاسلحة الصلبة، بعد أن تحقق ما يقرب من توازن الرعب بين القوتين العظميين الممتلكين لأضخم ترسانات أسلحة الدمار الشامل. نزعت كل قوة إلى استخدام الأساليب البديلة للضغط على الآخر؛ وكانت الأسلحة الثقافية من أبرز مظاهر الحرب الباردة، حيث طور كل من المعسكرين برامجه الفكرية بما لم تشهد الأرض له مثيلا من قبل. وتمّ الإنفاق عليها بما كان من الممكن أن يبني أعظم المدن والحواضر البشرية. لكن هذه القوى العظمى ظنت أنها تحتاج لبقائها واستمرار مواجهتها الضارية إلى هذه البرامج.

في مثل هذه المواجهة طورت البشرية وسائلها وبرامجها، واكتشفت القوة العظيمة الكامنة في الفكرة بصورة لم تحدث من قبل. وانطلقت الأدمغة للاستفادة القصوى من كل ما تقدمه التقنيات والاختراعات من أجل صناعة توجهات عند شعوب بأكملها؛ بما بات يعرف بصناعة الرأي العام. وامتلك أصحاب الأموال تلك الوسائل الاعلامية التي تمثل أحدث منابر الخطاب وأشدها خفاء واكثرها تطورا وأبعدها وصولا، ليبدأوا عملية

التأثير على شعوب العالم، وسوقها بما ينسجم مع مصالحهم.

وفي ظل هذه التحولات الكبرى، انطلقت التيارات الفكرية من متن الجامعات والمعاهد العلمية لتصنع المزيد من الأدمغة التي لا عمل لها سوى التأثير الفكري على الآخرين. وصار بالإمكان توجيه شعب بأسره لتبنّي فكرة باطلة أو قيمة منحطة.

أما شعوب العالم الثالث فقد وقفت في كثير من الأحيان متفرجة منفعلة، ما خلا بارقة الخميني التي شعّت على الشعب الإيراني، ليخترق هذا الحصار الفكري ويتخلص من التبعية الثقافية المسحوقة. وعندما اشتد صراع الهويات، وبدأ كل شعب بالبحث عن مستلزمات تميزه وهويته، وجد الكثير من شعوب العالم نفسها عاجزة عن ذلك، واندكت شعوب بأكملها في ثقافة مهيمنة وكأنها لا تملك حراكا.

لقد اجتمعت القدرة الأمنية مع القوة الاقتصادية المدعومة بالوسائل العلمية المتفوقة، لتشكيل أكبر معسكر ثقافي شهده التاريخ، وهو يغزو العالم كله بقيمه وثقافته. وتمكن محاربوه المتمرسون من الدخول الى كل بيت!

اختار الكثيرون التفرج والمضي مع التيار الجارف ووجد القليلون أنفسهم مستضعفين لايملكون من الوسائل والإمكانات ما يمكن أن يوصل صوتهم الى شعوبهم ومجتمعاتهم. وإذا وصلت أصواتهم فإنها تصل خافتة ضعيفة،لا يسمع منها الا اقل القليل وسط الضجيج الهائل لأصوات القوى الكبرى.

وفي كل مكان تبرز مقاومة، ومع كل يوم يزداد الوعي.. بعض المقاومات إختارت لنفسها أن تشارك بقوة في هذه المواجهة الإعلامية الثقافية؛ فآمنت بإنشاء المؤسسات والمعاهد التي تمكنها من التفاعل مع الشعوب وليس مجرد الفئات والأفراد.

استدعت هذه المقاومات الثقافية الطاقات من مختلف الأطياف، وآمنت بسلاح العلم والمعرفة، وباتت تنفق أكثر من ذي قبل. ومع كل يوم صار إيمانها يزداد قوة وهي تشاهد النتائج الطيبة. فلن يكون بعد اليوم هيمنة للقوى العظمى على الأذهان والعقول. بل صار بالإمكان شن هجمات مضادة وفعالة؛ وإن كانت اهداف هجماتها تختلف بالجوهر عن أهداف أصحاب الأموال والثروات.

لأول مرة إذاً، سيمتلك المستضعفون مؤسساتهم الثقافية، معلنين بذلك الخروج عن النزعة الفردية التي حكمتهم طيلة قرون متمادية. سيعملون من اليوم على ترسيخ عقلية المؤسسات التي تهتم بالتخطيط البعيد المدى والاستخدام الأمثل للطاقات والإيمان القوي بالإبداع.

لكن يبدو أن هذه الأمور لوحدها لا تكفي، فالمؤسسة ليست مجرد إرادة وعزيمة، وهي ليست صرحا ماديا بحتا، وليست مجرد إمكانات أو طاقات بشرية؛ فهي قبل كل شيء نظرية ورؤية تنطلق من مبادئ واضحة تتبناها الطاقات العاملة، وتتفاعل على أساسها لوضع الخطط والبرامج وتطبيقها.

من هنا كان هذا الكتاب سعيا للمساهمة في تفعيل الحوار الهادئ والمنطقي لبلورة المبادئ الأساسية في البرامج والأنشطة التعليمية، وجعلها منطلقا للأعمال الجماعية التي تشترك فيها أفضل الطاقات العلمية.

سيد عباس نورالدين

بيروت رجب 1427

نسمع دائماً بوجود مشكلة ثقافية أو مشكلة المثقف العربي، نسمع بذلك ونقرأ عنها في وسائل الإعلام ومنتديات الفكر ومجالس العلم التي تتفق جميعاً على هذا المصطلح.

ومن جانب آخر، فإن كل من امتلك أدنى إلمام بوضع المجتمعات وتوجهاتها، يعلم أن أي مجتمع إنساني إنما يحدد مساره على طريق الحضارة ويتفاعل مع غيره من المجتمعات بحسب الثقافة السائدة فيه. فالثقافة تمثل المحرك الأساسي لكل مجتمع يرتبط أبناؤه بنسيج واقعي موحد.

بل يمكن القول أننا نستطيع أن نستشرف مستقبل هذا المجتمع أو ذاك من خلال فهم وضعه الثقافي ومعرفة العناصر المكونة لثقافته، إضافة إلى معرفة ثقافة المجتمعات المحيطة به، والتي يتفاعل معها وفق مقتضيات النظام العالمي.

إن امتلاك القدرة على تحليل ثقافة المجتمع تعدّ خطوة أساسية نحو الوعي الإجتماعي المطلوب، أو ما يصطلح عليه بمعرفة الزمان ومقتضياته.

وكمثال على ذلك، إذا تعرض مجتمع ما للإحتلال من قبل قوة أجنبية، يمكن الإدعاء بأننا نستطيع أن نتوقع ما سيؤول إليه هذا المجتمع من خلال معرفة ثقافته بعناصرها المختلفة ومعرفة ثقافة المحتل.

وهكذا، يمكننا أن نتصور الكثير من الوقائع الآتية والمسار الذي ستسلكه الأحداث المصيرية من خلال ما نعرفه عن ثقافة المجتمعين المتصادمين وغيرهما من المجتمعات البشرية.

ولا نغفل هنا ضرورة معرفة طبيعة النظام العالمي بأبعاده السياسية والأمنية والتقنية والاقتصادية والجغرافية.

فهذا النظام العالمي الحاكم على المجتمعات البشرية قد أدى إلى خلق أعلى درجات الاحتكاك الثقافي، مما حدا ببعض المفكرين الكبار إلى اعتبار مستقبل العالم: صراع أو صدام حضارات، ربما ينجم عنه صراعات وحروب وأزمات بحسب شدة الاحتكاك والتصادم الثقافي.

وقبل أن ندخل في صلب بحثنا المتعلق بالمشكلة الثقافية التي قد تقلق صنّاع القرار في المراكز المهمة، ويكتوي بنارها العاملون في المجالات الاعلامية والفكرية كافة، نحتاج إلى التمهيد بعرض مجموعة من المفاهيم الأساسية، ثم ننتقل إلى دراسة أهم السنن والقوانين الحاكمة على المجتمع البشري، لنخلص، بإذن الله تعالى، إلى رؤية عميقة وواضحة، قد نخرج منها بتحديد مسؤولياتنا والمشاريع التي ينبغي رسمها في هذا المجال الحيوي.

سنحتاج بداية إلى تحديد بعض المصطلحات المستخدمة، والتي سيتضح من خلالها وبشكل مباشر حجم الضياع والتخبط عند تناول قضية الثقافة والعمل المسمى بالثقافي.

والمصطلحات الأساسية في بحثنا هي: الاسلام والمنهج والثقافة والمعرفة والفكر.كل واحد منها يحتاج إلى تعريف محدد يحول في حال الاتفاق عليه دون امتداد الجدال إلى ما لا أفق له.

• **الاسلام**: هو دين الله الذي يحكي عن ارادته سبحانه في التكوين والتشريع. ففي ارادته التكوينية أوجد العالم وتجلى فيه. وفي ارادته التشريعية أظهر مايريده من خلقه (وبالأخص الانسان).

والاسلام يعبر عن نفسه من خلال القرآن الكريم وسنة المعصومين (ع) القولية والفعلية، لما يمثل هؤلاء الأطهار من ادراك تام لهذه الإرادة الإلهية بشقّيها.

هذا مع اعترافنا بوجود فارق بين القرآن الكريم المتمثل بهذا المصحف الشريف الموجود بين أظهرنا والسنة الشريفة، حيث كان القرآن مصوناً من التحريف اللفظي مع تضمنه لجميع الأصول المبينة للإرادة الإلهية، وان كان في فروعه المختلفة قد احتاج إلى بيان. كما ذكر تعالى في كتابه: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم ولعلهم يتفكرون**﴾. بينما يمثل التراث المنقول عن المعصومين كياناً يصعب الوصول فيه إلى تحديد جميع تلك الأصول إلا بعد إعمال اجتهاد خاص قادرٍ على سبر أغواره، في لجة عمليات الدس والتحريف المختلفة.

فالاسلام يعبرّ عن نفسه من خلال هاتين الوسيلتين متضمناً ما ينبغي أن يعرفه الانسان وما ينبغي أن يقوم به من أجل تحقيق الأهداف الكبرى على صعيد الفرد والمجتمع.

اما العلماء الذين آمنوا بقدسية هذين الثقلين، فكل واحد منهم يعبر عما فهمه منهما بحسب قواه الإدراكية وسعيه وقدرته على تخطي العوائق

الزمانية والمكانية.

• **النهج:** هو النسيج الذي يربط بين معارف أية مدرسة أومذهب فكري أو دين الهي، أو حتى اطروحة شخص واحد، ومن خلال هذا النسيج والارتباط يتشكل أمامنا مسار هذه المعارف والافكار وغاياتها.

• **الثقافة:** هي مجموع الاعتقادات والمعارف والقيم والعادات التي يتبناها فرد ما أو مجتمع. فهي أمر معاش وظاهر يتجلى بالسلوكيات والممارسات اليومية ولا ينحصر في دائرة الكتاب والتنظير. من هنا قد نقع في خطأ جوهري إذا اعتبرنا الثقافة ليست سوى ما يطرح من أفكار في الكتب والدراسات. وقد ينجر هذا الخطأ إلى الحكم على هذا المجتمع أو ذاك من خلال الكتب والمؤلفات التي يتبناها بعض أفراده. وكمثال على هذا، الحكم على المجتمع السني بأسره من الناحية العقائدية من خلال مطالعة الكتب الكلامية للأشاعرة أو المعتزلة. فمن المعروف أن الكثير من العقائد أو الأفكار التي تطرح في الدراسات الفكرية إنما تكون وليدة تأملات أشخاص أو تفاعل فكري بين عدد قليل من المفكرين. وقد تبقى هذه الأفكار منحصرة في هذه الدائرة الضيقة لا تجد لنفسها القدرة الكافية على التأثير في صياغة أفكار وذهنيات الرأي العام.

• **المعارف:** وهي حكايات عن أمور، قد تكون مطابقة للواقع الذي نؤمن به وهو الواقع العيني (بشقيه التكويني والاعتباري)،وقد لا تكون فتتصف بالكذب أو الخطأ.

• **الفكر:** وهو مجموع آراء أو استنباطات وتفسيرات ينطلق من شخص أو عدة أشخاص حول النصوص الدينية أو الوقائع المحيطة. وما لم تجتمع هذه الآراء في منظومة معينة فهي لا تستحق الدراسة والاهتمام.

عندما نتحدث عن الفكر الاسلامي ـ وهو ما يعنينا في هذه الدراسة ـ فإننا نتناول التفاسير والاستنباطات الخاصة بعلماء ينتمون إلى الاسلام. وهكذا، فإن الحديث عن وجود فكر اسلامي واحد هو حديث فيه مبالغة. فهناك أفكار لعدد كبير من العلماء الذين يختلفون فيما بينهم في مباني التفسير والاجتهاد والاستنباط، ويختلف تبعاً لذلك نتاجهم الفكري. إن استخدام مصطلح الفكر الاسلامي للإشارة إلى شيء واحد محدد المعالم يمثل مغالطة قد تؤدي إلى سجالات لا نهاية لها. حيث أن هذا النتاج الفكري الواسع، ورغم افتخاره بالانتساب إلى الدين الإلهي، يحمل في طياته اختلافات عميقة تطال جميع جوانب الحياة وأبعاد الوجود.

ولا يغفل عن هذه المغالطة سوى من يريد استغلالها للايقاع بمن لا عهد لهم بمثل هذه القضايا.

ان معظم المفكرين الاسلاميين لم يدّعوا يوماً ان اجتهاداتهم هي النسخة الأصلية للدين الواقعي، وان كنا نلاحظ منهم الجزم هنا وهناك. وعلى هذا الاساس انتقلت علاقة بين المقلِّد لفكرهم من مجال الحقيقة المطلقة إلى مجال براءة الذمة في الالتزام والتطبيق.

ولانشك بأن الفكر الاسلامي المعصوم في جميع أبعاده وقضاياه موجود في عالم الواقع، لم يرفع يوماً بشكل تام عن الأرض، إلا أنه لم يتحول إلى نص متفق عليه غير قابل للتأويل أو الخدش بسنده وانتمائه! حتى ما جمع جمعاً دون تفسير لم يكن بعيداً عن مجموعة من الاشكالات التي يكون أهون ما فيها أن هذا الجمع قد خضع لرؤية الجامع او المحدّث في تبويب النصوص وعرضها بطريقة تظهر ما يراه وتخفي ما لايعرفه أو يؤمن به.

إن هذه المصطلحات لن تكون خارجة عن المناقشة بالنسبة للبعض حيث

لا تشاحّ في الاصطلاح، لكننا نحتاج اليها في تعريفاتها الذائعة من أجل الوصول إلى النتائج الصحيحة عند دراسة مشكلة الثقافة.

المطلب الآخر يتعلق بالمعارف الأساسية أو المعلومات التي يحتاج اليها النوع الإنساني من أجل تحقيق حياة بعيدة عن القلق والاضطراب المدمر والسير بخطى ثابتة وواثقة. فهل يمكن تحديدها؟ وما هي المعايير اللازمة لذلك؟

وفي الجواب يمكن القول ان ما يحتاجه البشر لا يخرج عن أمرين أساسيين:

الأول: امتلاك تفسير واضح للظواهر الأساسية في الوجود، كالموت والمصير والحوادث الكبرى. هذا بخلاف الكثير من الظواهر الأخرى كاصفرار أوراق الأشجار واحمرار الأفق أو تساقط الندى... فإنّ مثل هذه الوقائع الجزئية لن تشكل فيما لو لم تفسر تفسيراً واضحا أية عائق أمام ما يحتاج إليه الناس فيما يتعلق بمصيرهم.

ويعتبر الاختلاف العميق بين المذاهب والأديان أحد الظواهر الأساسية التي لا يقدر الانسان على التعامل معها بلا مبالاة.

الثاني: البصيرة، أي أن يكون مسيره في الحياة واضحاً. فيعلم، بعد امتلاك التفسير الواضح المنسجم للظواهر الأساسية، ما الذي ينبغي أن يقوم به وما هي مسؤوليته تجاه تلك الأمور.

وبحصوله على الأمرين يصل إلى مستوى المعرفة الواعية ولا يكون انشغاله بغير ذلك إلا ترفاً أو من باب الاضطرار.

وينبع من هذه القضية سؤال آخر، يمثل خطوة مهمة باتجاه ما نحن بصدده

وهو:

إذا كان ما يحتاجه الانسان على النطاق المعرفي لا يخرج عن هذين المجالين، فهل يفتقد المجتمع المسلم - وخصوصاً الشيعي - إلى المصادر اللازمة التي تؤمّن له ما يحتاجه في هذا المجال ؟

وإذا كانت المصادر كافية، فلماذا تحدث المعاناة ؟ ولماذا يستمر العلماء والمفكرون في انتاج الفكر وإضافة المزيد على التراث الكافي ؟

والواقع أن قسماً مهماً من الجهود المبذولة والتي بذلت في هذا المجال يرجع إلى عدم الوقوف على جميع المعارف الأساسية بعد تحديد معاييرها، والإهمال لدراسة مدى ومستوى تبنيها في الواقع الإجتماعي، أو بعبارة أخرى: عدم الوقوف على ما آلت إليه هذه المعارف في تكوين ثقافة سائدة مهيمنة.

ان الكثير من الأعمال الفكرية كانت، ولا تزال، تدور في إطار شخص المفكر ومحيطه وضمن نطاق تجربته وملاحظاته المنحصرة في بيئته الخاصة. وقد صُبَّ هذا الاطار في الكتاب الذي يستغرق في الابتعاد عن الواقع. فكتاب يصدر هناك قد يمثل حافزاً أساسياً ليتحرك هذا المفكر في الرد باعتباره بدع تهدد المجتمع وتمحق الدين. وقد تعزز هذا الاتجاه في الانتاج الفكري ليتحول إلى أصل أولي، متسلحاً ببعض النصوص الدينية التي توجب على العالم مقابلة البدع أو تعليم الجاهلين.

وأغرب من ذلك، ما يقال في خصوص المشكلة الثقافية في مجتمعنا الذي لا يقرأ؛ حيث تتم مقارنة معدلات وأرقام المطبوعات في الدول الصناعية مع نظيراتها في بلداننا ثم يُستنتج: ان الغرب لا يعاني من مشكلة ثقافية، وان حجم هذه المشكلة عندنا كبير جداً.

وإذا سألنا عن طبيعة وتفاصيل هذه المشكلة لم نسمع سوى أصداء شعارات وكلمات عامة.

فهل يصح ان نقول أن هناك مشكلة ثقافية؟ وماذا تعني هذه العبارة ؟

إذا كنا نتفق على شيء، فهو أن المشكلة عبارة عما يسبب خسارة أو ضرراً معيناً. والان، اذا جئنا إلى عبارة "مشكلة ثقافية" فنحن نقدر أن نستعملها كما نستعمل تعبير "مشكلة صحية"، في الاشارة الى وجود مرض أو آفة أصابت البدن وهي تلحق به نوعاً من الخسارة والألم ؟

فهل يصح أن نقول مشكلة ثقافية بمعنى أن الثقافة واقعة في خسارة أو ألم؟! هذا، والحال أن الثقافة ليست موجوداً خارجياً متشخصاً. وعليه فالدقة التي نحتاج اليها ها هنا تتطلب منا أن نصحح العبارة ونقول "مشكلة ثقافة مجتمع" : أي مشكلة قيم ومعارف ومبادئ داخل مجتمع ما.

وهل يعني ذلك أن نفس المعارف والقيم والمبادئ والتقاليد مصابة بالضرر؟ أم المسألة أن هذه المعارف والقيم وغيرها تؤدي إلى اصابة المجتمع بالضرر ؟

والأصح بل الصحيح هو التعبير الثاني؛ حيث تتبلور المسألة المتعلقة بالمشكلة الثقافية في وجود ثقافة معينة أو بعض عناصر ثقافة معينة تؤدي إلى إلحاق الأضرار بالمجتمع.

وهكذا ينتقل البحث إلى تحديد هذه الأضرار.

وبعدها يمكن الانتقال إلى دراسة العلاقة بين أي ركن داخل ثقافة مجتمع ما والأضرار التي تلحق به.

ولتحديد الضرر ومستوياته نحتاج إلى معرفة مستويات التقدم والازدهار او الرقي الاجتماعي، وهي معايير للسلامة أيضاً، وعلى ضوئها،

فإن أي نقص على سلم التقدم يمكن أن يحكي عن ضرر أو مشكلة.

لقد سعى بعض علماء الاجتماع إلى وضع سلم للازدهار الاجتماعي واعتمدوا مجموعة من المعايير التي تنطلق بمعظمها من الايديولوجية أو الرؤية التي يحملونها حول السعادة والشقاء أو الكمال والانحطاط. وقد تبين خواء بعض هذه النظريات التي سادت في عصر ما قبل الاستعمار وأثناءه، هذه النظريات التي تبنت المعايير العرقية والقومية، كقولها بأن العرق الانكلوساكسوني هو العرق الذي يميل الى الحضارة بطبعه.

فتقسيم المجتمعات إلى متخلف ومتطور على أساس شيوع لعبة الفولف وانتشارها فيها أمر يراد منه استخفاف العقول، كما أن اعتماد معدلات الانتاج أو نوعية الصناعات والقدرة على استخدام التكنولوجيا المتطورة مما ينطوي على مغالطات واضحة أيضاً. وان نسبة مشاركة هذا المجتمع أوذاك في الانتاج العالمي أو المحلي من سلع وبضائع لا تصلح لاعطاء صورة دقيقة عن رقي المجتمع وازدهاره. وخصوصاً إذا لاحظنا الآليات الرأسمالية وعمليات اقتصاديات السوق الحر التي يمكن أن تحصر المساهمة في الانتاج بنسبة ضئيلة من أفراد المجتمع.

ولهذا يوجد اتجاه جديد في علم الاجتماع يدعو إلى التخلص من المعايير العرقية أو الثقافية الخاصة، والوقوف على تحديد معايير أساسية ترتبط بجوهر الحياة البشرية واحتياجات الانسان الضرورية.

فالصحة والمرض وطول العمر (بشرط عدم المرض) ونيل الحظ الكافي من الغذاء والراحة وامكانية الوصول إلى المعارف الضرورية والتسخير المعتدل والسلمي للطبيعة وانخفاض معدلات الجريمة والعنف وأمثالها أمور يمكن بواسطتها اختراق حاجز الاختلافات الثقافية، بخلاف نوعية اللباس

ومشاهدة الأفلام السينمائية واستخدام الأجهزة الحديثة والتسخير العشوائي للموارد الطبيعية والاستفادة من وسائل الترفيه اللامتناهية التي تعد جميعاً تابعة لنمط ثقافي محدد، وليست علائم واضحة يمكن الاستفادة منها لمعرفة مستوى الازدهار الاجتماعي.

فإذا اعتمدنا المعيار الجديد، فإن سكان استراليا الاصليين قد لا يختلفون كثيراً عن سكان نيويورك في امتلاك الحكمة اللازمة للحياة السعيدة. وتتضح عندئذ إشكالية أن يقال أن المجتمع المصري ـ مثلاً ـ مجتمع متخلف ومريض، لأن المعدل العام للساعات التي يقضيها المصري في المقاهي يتجاوز خمس ساعات يومياً، مقارنة مع البريطاني الذي حقق نفس هذا المعدل في مشاهدة مباريات كرة القدم أو المطالعة. فما هي الكتب التي يطالعها البريطاني؟

وما هي المعلومات التي يحصل عليها كل يوم؟

فربما تكون الوفرة المعلوماتية بأشكالها المختلفة سبباً لزيادة شقاء البريطاني لما تتسببه من التنويع الهائل في رغباته وحيرته أو توجد الكثير من الاهتمامات التي تصب خارج مسير سعادته.

فالحكم على رقي مجتمع ما أو تخلفه من خلال حجم انتاجه الفكري أمر ينطوي على مغالطات عدة، لم تعد تخفى على كل ذي بصيرة.

ومع اعترافنا بصعوبة الحصول على اجماع حول هذا الأمر البالغ الأهمية ونظراً إلى ندرة الدراسات المرتبطة به، فإن معرفة روح الدين الاسلامي يمكن أن تسعفنا في تحديد الحد الأقصى في سلم الرقي والانحطاط الاجتماعي. ومن خلال ذلك يمكننا أن نتعرف على المسار العام لهذا السلم.

فالانحطاط في مداه الاقصى يعني زوال المجتمع بالكامل سواء من الناحية المادية: كانقراض أهله وانتقالهم من هذه البقعة أو تشردهم في الآفاق، أو المعنوية: كاستبدال هويته بهوية جديدة على مستوى الثقافة والموقعية العالمية أو الرسالة.

المجتمع الاسلامي (مثالاً) حددت هويته من جانب اله العالم على أساس رسالته إلى البشرية وموقعيته بين الأمم، وهي المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾ فإذا لم يعد هذا المجتمع حاملاً لهذه الرسالة، فإنه سيتخبط في علاقة قلقة مع تراثه، تؤدي به إلى لجة النزاعات والتشتت، والتي يعقبها تسلط الآخرين عليه واستعباد أهله واستغلالهم وسلبهم ثرواتهم وإفشاء الفساد والجريمة فيهم، فيسلك في مسيرة الانحطاط التي تنتهي بزواله عن خارطة العالم، وذلك بحكم الصراعات المحكومة بقوانين النظام العالمي.

والتكامل في مداه الاقصى يكون بالسيادة المطلقة لهذا المجتمع، وتحوله إلى مجتمع يرتفع فيه مستوى الاستفادة المتساوية من ثروات وموارد الطبيعة إلى ما لا نهاية فيزول التزاحم كلياً وترتفع معه النزاعات، ويتمكن الجميع من الحصول على ما يشتهون دون أي عوائق.

ولاشك ان هذا التساوي المقرون بارتفاع جميع العوائق والمزاحمات وزوالها، سوف يقضي على امكانية نشوء حكومة الطاغوت التي يستغل فيها أصحاب الثروات الهائلة الفقراء والمستضعفين، ليفرضوا عليهم آراءهم.

ان تساوي الفرص والامكانيات ليس إلا مظهر بسط العدالة الإجتماعية. وفي المقابل فإن إزدياد ثروات مجتمع ما ـ مهما بلغت ـ إذا لم تكن مقرونة بهذا التساوي الذي تنعدم فيه الطبقية، فإنه يكون فاقدا

للعدالة بمعناها الشامل. فاتساع الهوة بين الطبقات من جراء إختلاف المداخيل يحكي عن اتجاه المجتمع نحو المزيد من الظلم الإجتماعي. ولعل درجة الإختلاف في الإستفادة من الموارد والثروات والإمكانات تعد أفضل مؤشر لمستوى العدالة في أي مجتمع نقوم بدراسته.

فتوزيع الثروة والإستفادة من الموارد هو المعيار الاوضح الذي يحكي عن رقي أي مجتمع وانحطاطه.

وعليه، فإن المجتمع الامريكي الذي يسيطر فيه 15%من سكانه على أكثر من 80% من ثرواته، هو مجتمع بعيد جدا عن هذه العدالة وذلك الرقي. وإذا كان هذا التفاوت في اتساع وازدياد فهذا يعني ان هذا المجتمع يسير نحو الإنحطاط لا التكامل. هذا، في حين انه قبل عشرين سنة وبحسب الإحصاءات كانت نسبة 24% من سكان الولايات المتحدة الامريكية تمسك بـ 80% من الثروة القومية. ولهذا نجد معدلات الجريمة والفساد وانتشار الامراض في ارتفاع مستمر - فقد وصفت إحدى المجلات الرئيسية في الولايات المتحدة المجتمع الامريكي بالامة الكئيبة، اذ سجل اكثر من 50 مليون مواطن في عداد الذين يتناولون الاقراص المضادة للكآبة - . هذا في الوقت الذي تُقدم التجربة الرأسمالية الامريكية كنموذج ينبغي ان تحتذي به الأمم والشعوب!!

وعند التأمل، يمكننا ان نرجع جميع المفاسد المعنوية والاخلاقية والروحية والاجتماعية والفكرية والسياسية إلى الاختلال الحاصل في توزيع الثروة. وقد نجد مجتمعا أو بلدا لا يمتلك الا ما نسبته 1% من الثروة القومية الامريكية (مع الأخذ بعين الإعتبار النسب السكانية)، ومع ذلك فإنه يسجل معدلات أكثر انخفاضاً من معدلات الجريمة والفساد والأمراض المسجلة في أمريكا.

عندما يسجل أي مجتمع حالة ارتفاع في مستويات العدالة الاقتصادية، بتقليص الفارق في توزيع الثروة، فإن هذا المجتمع يعد في وضع تكاملي وإذا استمر في هذه الحركة الصعودية، فإنه سيصل الى الحد الأقصى على سلم التكامل. ذلك لان هذه العدالة تكون أرضية أساسية لانتشار التقوى في المجالات الأخرى وازدهار الفضيلة والقيم السامية مع ما يستتبعه هذا من تفتح القابليات والاستعدادات العلمية والفنية لتصنع من هذا المجتمع مجتمعا قويا قادرا على مواجهة أعتى التحديات.

لقد وضع عالم الاجتماع الكبير ماكس ويبر سلما للإزدهار الإقتصادي في محاولة لدراسة العلاقة بين الدين والرأسمالية، وعلى أساسه وجد ان المجتمعات البروتستانتية تقع في أعلى السلم، ليخلص إلى ملاحظة التأثير الواضح للمذهب البروتستانتي في البعد الإقتصادي. فعند أمثال ويبر ليس مصادفة ان تحقق المجتمعات البروتستانتية أعلى المعدلات في المدخول القومي.

وبالتفحص، نجد أن المعايير التي اعتمدها "ويبر" لقياس الازدهار وعدمه هي معايير مضللة تقوم على أساس الثروة القومية. وهي ما تمتلكه الدولة ويمعزل عن توزع هذه الثروة بين الفئات المختلفة للشعب.

وتعرضت نظرية ويبر لضربة أخرى بعدما أثبتت بعض المجتمعات غير البروتستانتية (كحال شرق آسيا) قدرتها على تحقيق التقدم الاقتصادي المنافس لبلدان الأغلبية البروتستانتية.

وعن أمير المؤمنين (ع) انه قال:

سمعت رسول الله (ص) يقول في غير موطن: "**لن تقدس أمة لا يؤخذ فيها للضعيف حقه غير متتعتع**".

وهكذا، فإن المجتمع الذي يكون في حالة صعود على سلم التكامل الواقعي، والذي يصل أقصاه الى العدالة الاقتصادية الشاملة، هو مجتمع ذو ثقافة سليمة.

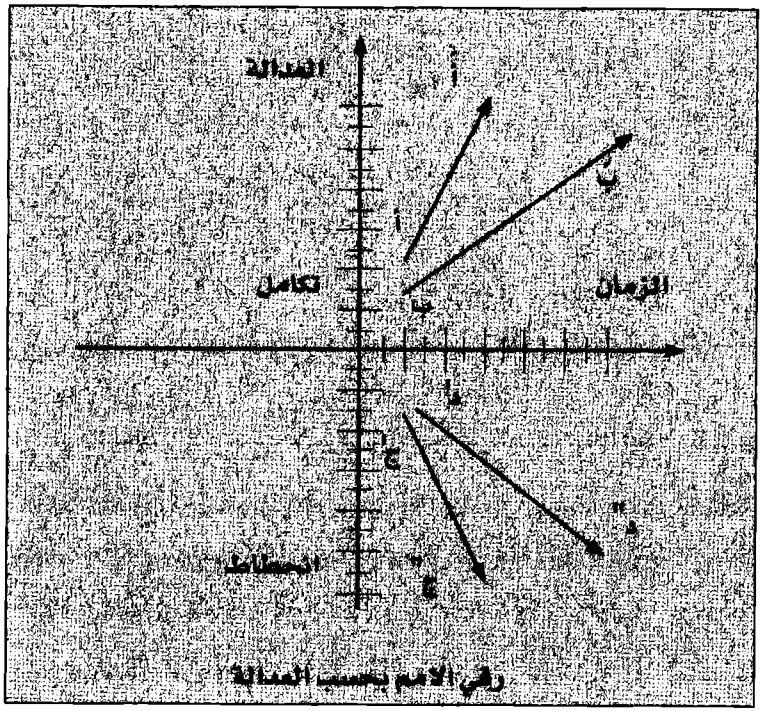

بخلاف المجتمع المتجه نحو المزيد من الفروقات الطبقية وسوء توزيع الثروة. وبحسب سرعة الإنحدار او التكامل تمتاز الثقافات فيما بينها أيضا. وعليه قد نجد ثقافة أسلم وأقوى من ثقافة أخرى تتمتع بالسلامة والقوة! وهناك ثقافة أحط وأضعف وهي التي تجعل مسير انحطاط مجتمعها متسارعاً.

وجميع هذه الأسباب ترجع إلى المكونات الاساسية والفرعية للثقافة. واذا نظرنا الى الرسم البياني لوجدنا ان كلا من مجتمع أ و ب قد عبرا نفس مراتب ودرجات التكامل، لكن مجتمع أ تفوق على مجتمع ب من الناحية الزمانية وهي التي تبين سرعة تكامله.

وهو الامر نفسه الذي يحدث لكل من مجتمع ج ود ولكن على صعيد الانحطاط والتسافل.

يمكن القول بان المجتمع الإيراني ومنذ انتصار ثورته يسجل معدل نمو ملحوظ على مستوى العدالة والتكامل، حيث ارتفعت نسبة استفادة الطبقة المحرومة من الثروة القومية مقارنة بالطبقة الغنية، ولا زالت هذه النسبة آخذة في الارتفاع. هذا، وان كانت عملية التكامل بطيئة لوجود عناصر سلبية في الثقافة الايرانية تكون معطلة لبعض العناصر الايجابية.

ولو استطعنا الحصول على الاحصاءات المتعلقة بمعدلات توزيع الثروة في بلدان العالم لربما وجدنا الدول الصناعية والرأسمالية من بين الدول الاكثر انحطاطا.

قد تبرز بعض التجارب كاشكال أو خلل في هذه النظرية، كتجربة اليابان أو الدول الاسكندنافية وأستراليا. هذه الدول التي حققت معدلات عالية من الرفاهية والعدالة الاجتماعية رغم أنها لم تكن الدول الاستعمارية التي حصلت على ثرواتها بالغزو ونهب ثروات الشعوب الأخرى واستغلال حروب الآخرين (كما فعلت الولايات المتحدة في الحروب العالمية).

إلا أن أفضل تشبيه يمكن أن يصور لنا حقيقة المشهد هو تلك العوالق التي تلتصق بجسم إنسان شرير وضعيف، فهي تمتص دمه دون أن تكون شريكة جرمه.

وهذه الدول التي تقدم كنموذج ناجح بعيداً عن الهيمنة والاستعمار قد تحقق لها التقدم الاقتصادي بفعل ارتباطها بالمنظومة الاستعمارية قديماً وحديثاً. فتجد الدول الاسكندنافية تستفيد من نزاعات جيرانها الأوروبيين وتنافسهم المحموم في استعمار البلاد البعيدة لتقدم لهم خدمات وتجهيزات عالية الجودة. ولم تكن اليابان بوضعها الحالي سوى وريثة عهدين: الأول الاستعمار القديم للدول المجاورة مع ما يعنيه الاستعمار من سلب ثروات، والثاني كونها حاجة أمريكية كبرى للوقوف بوجه المد الروسي والصيني. أما أستراليا فإن قدراتها الاقتصادية المميزة قد تحققت بفضل سياساتها غير العادلة فيما يتعلق بالهجرة، رغم أنها تشكلت من المهاجرين البيض وأسلافهم المستعمرين. ولم تكن أستراليا بوضع عسكري يمكنها من ذلك لولا ارتباطها بالمعسكر الغربي وحصولها على الدعم والحماية. ولولا ذلك لكانت استراليا منذ أكثر من من مئة سنة محافظة صينية بامتياز يقطنها عشرات الملايين من غير المستعمرين الأوائل.

ومن المتوقع أن تشهد الدول التي تدور في أفلاك الدول التي حققت ازدهارها الاقتصادي بالاستعمار والسلب تراجعاً كبيراً في ازدهارها طالما أنها وليدة ازدهار غيرها.

تشكّل العناصر المختلفة للثقافة باجتماعها وتفاعلها فيما بينها وبتفاعلها مع الثقافات الاخرى المحتكة بها: ما نعبّر عنه بالعلة التامة المحركة للمجتمعات.

ان الثقافة النهائية لأي مجتمع وهي التي تخلص الى تلك العناصر الثابتة في مدى الوحدات الزمنية التي تقاس بها حياة الأمم، والتي يمكن ملاحظاتها بوضوح على امتداد المدة الزمنية المتناسبة مع حياة الامم (ربما تكون عشر سنوات في عصرنا الحالي): ليست سوى حصيلة تفاعل العناصر المكونة في داخل هذه الثقافة، وفيما بينها وبين عناصر أخرى تحتك بها من خارج المجتمع. وتخضع المجتمعات بشكل دائم لعملية التفاعل الثقافي في الداخل ومع الخارج فتستبدل فيها بعض العناصر وتثبت أخرى. الا ان المعيار في تحول أي مبدأ أو قيمة أو عقيدة إلى عنصر داخل الثقافة يكون في صيرورته واقعا معاشا تتبناه الأغلبية في المجتمع المذكور. هذه الاغلبية التي تسير بالمجتمع نحو أية نقطة على سلم التكامل والانحطاط الاجتماعي.

وغالبا ما تبدأ عملية التفاعل نتيجة وجود ضعف ما في أحد العناصر الثقافية، حيث يكون هذا العنصر أكثر عرضة للتأثر. فالإعتقاد بألوهية الأجداد لا يمكنه ان يصمد أمام الإعتقاد بإله مطلق غير محدود، واعتبار العرق أساسا للتفوق العلمي، سرعان ما يسقط أمام ثقافة التعددية والانسانية الناشطة في عصر العولمة. كما ان ثقافة الفصل بين النساء والرجال تعيش مأزقا حقيقيا أمام النزعة العالمية للمساواة وتحرير المرأة.

ولهذا ينبغي ان نتعرف في كل ثقافة على هذه العناصر ونستشرف من خلال ما نشاهده من عملية التفاعل مستقبل هذا العنصر، والآثار التي

ستظهر في ثقافة مجتمعه بعد سقوطه او استبداله.

قد يسقط عنصر ما ويؤدي ذلك إلى حالة من التداعي المستمر في العناصر الاخرى نظرا الى محورية العنصر المذكور. وقد يكون سقوط ذاك العنصر نافعا في تقوية العناصر المحورية مما يضفي على ثقافة مجتمعه القوة والمنعة.

ولا ننسى بأن الكثير من عمليات التفاعل والتبادل قد حدثت ولا زالت تحدث جراء الهيمنة الإقتصادية أو العسكرية. ويلعب الإعلام دورا بارزا في تقوية عناصر هزيلة وتنميقها لجعلها تبدو متفوقة، مما يؤدي إلى صمودها، بل إلى شيوعها وانتشارها. نذكر على سبيل المثال الصورة المتفوقة للشركات الامريكية التي تلعب مجلة فوربس دورا اساسيا في تلميعها وتعظيم ثقافتها الادارية، بحيث تظهر كأنها التجربة الارقى في العالم والتي ينبغي أن تحتذى في كل مكان. ثم لنكتشف الخدعة التي تقوم بها هذه المجلة وأمثالها في اهمال التجارب اللامعة لشركات كبرى خارج الولايات المتحدة.

وان ثقافة التفلت الجنسي التي تظهر بصورة "زواج المثليين" (كما يراد أن نعبّر)، هي ثقافة هزيلة ومبغوضة لولا الدعم الاعلامي الكبير الذي تتلقاه.

وتشترك المجتمعات الإنسانية كافة بمجموعة من العناصر، وإن كان حضور هذه العناصر وأولويتها في المكون العام مختلفا ومتباينا. ولهذا يصبح هذا العنصر الذي نراه متشابها بين المجتمعات ـ إذا أخذناه بمفرده وبمعزل عن موقعه بين العناصر الاخرى ـ مختلفا بين ثقافة وأخرى.

ومن هذا القبيل وضع المرأة في مجتمع يعتبر وصولها الى الحكم أو

مشاركتها في السلطة أولوية، ووضعها في مجتمع لا يؤمن بهذه الاولوية، رغم تبني المجتمعين لنظام المساواة الاجتماعية بين الرجل والمرأة. فيظهر المجتمع الثاني بمظهر الرافض للمساواة !

وتتشابه المجتمعات ثقافيا أو تقترب من بعضها بحسب اشتراكها الكمي في العناصر المكونة. كما ان لكل مجتمع مميزات ثقافية خاصة تظهر بتميزه في بعض العناصر.

وهنا سؤال قد يصل إلى درجة الإشكال على هذه النظرية التي قد نلاحظ فيها تغليب الجانب المادي على المعنوي، وجعل الكمال الواقعي في ظل الوفرة المادية وتمكّن الجميع من الاستفادة القصوى من الموارد بحسب احتياجاتهم الحقيقية. فأين هي المعنويات الحقيقية، وأين هو الزهد والإعراض عن الدنيا الذي يطرح بقوة في التعاليم الإسلامية، وهي تحث على عدم الانشغال بهذه الدنيا والاكتفاء بالحد الأدنى منها. ألم يُخلق الإنسان للتكامل المعنوي الروحي الذي لا يتحقق الا في ظل العبادة والإقبال على الله تعالى؟!

ولا ننكر موقعية وصوابية هذه التعاليم الداعية إلى الزهد والإعراض عن هذه الدنيا، فإن النصوص الدينية التي تعبر عنها تصل إلى ما فوق التواتر. وإن كل من عاش التجربة الدينية بصورتها النقية وأدرك روح الإسلام يصل إلى هذه الفكرة.

بيد أن التجربة الدينية والتعاليم الإلهية لا تنفصل عن الواقع الذي عانى دوماً من نقص حاد في الموارد، وفي أغلب الأحيان بتسلط الطواغيت وأعوانهم على رقاب الناس وثروات الأرض. وفي ظل هذه الظروف، فإن التقشف والإعراض عن الدنيا من خلال الاكتفاء بالحد الأدنى المعاش كان

يمثّل أحد مظاهر المواجهة للأنظمة الطاغوتية. فإن حكام الجور يحكمون سيطرتهم على الناس من خلال احتياج الناس إليهم، وكلما ازداد هذا الاحتياج من خلال ازدياد حاجات ومتعلقات الناس، حصل هؤلاء الجائرون على المزيد من النفوذ: "احتج إلى من شئت تكن أسيره".

من الإشكالات التي تبرز على نظرية الحد الأقصى للعدالة الاجتماعية والتي تحقق فيها تلك الدرجة من الوفرة في الموارد والإمكانات دون وقوع التزاحم والتصارع: إن الأرض لا يمكن أن تؤمن مثل هذه الحالة، وإن محدودية الموارد أمر سيبقى ما دام البشر يتكاثرون.

وفي الجواب يمكن القول بأن الموارد والإمكانيات الموجودة في هذه الكرة الأرضية ليست كما يظهر لنا. فإن حجمها أكبر مما نتخيل، علماً بأنه لم يتم استغلال ثرواتها وقابلياتها إلا بنسبة ضئيلة جداً، هذا بالرغم من العمليات الواسعة للاحتكار والتي تنطوي على إخفاء الكثير من الموارد أو إتلافها. فالأرض لا زالت قادرة على تأمين حالة من الوفرة في جميع ما يحتاج إليه الناس، وما أخفت أكثر مما يمكن تصوره.

وسوف يتمكن البشر، فيما لو عملوا بجد وتعاون، من إيجاد تحولات عميقة وجذرية في كيفية استغلال ثروات الطبيعة التي لا تنضب.

وقد اختصر أحد المفكرين يوماً مشكلة العالم بقوله أنها تشبه شعر رأسه، فهناك كثافة في الإنتاج وسوء في التوزيع لأنه كان كث اللحية أصلع الرأس.

ولا ننسى كم يستهلك الناس من موارد طبيعية في أمور لا يحتاجونها بسبب الثقافة الحاكمة عليهم والممتزجة بالعبثية والتفاخر والانحراف.

ولا يخفى ما لهذا الموضوع من أهمية في الحوار الفكري الدائر حول النظم الاقتصادية والسياسية والبحث عن النظام الأصلح، وإن ما وصل إليه العالم اليوم على صعيد هذه المشكلة يمثل أكبر صفعة موجهة إلى الأنظمة المهيمنة عليه.

إن زهد الناس بما في أيدي الأثرياء، يفقد هؤلاء الكثير من إمكانيات التحكم، لأن المال هو المادة الأولى والعنصر الأساسي في سلطة المترفين وقدرة الظالمين.

وعندما يمسك الطواغيت برقاب شعوبهم، فإنهم لا يكتفون بذلك، بل يندفعون لفرض أنماط العيش والسلوك والاعتقادات عليهم، والقضاء على أية إمكانية للتغيير والانتفاض. وإذا رأوا في الزهد والمعنويات خطراً عليهم، فلن يألوا أي جهد في القضاء على هذا الدين الذي يحث على الزهد والمعنى.

ومما يتفاخر به النظام الرأسمالي أنه حقق طفرة عظيمة في العلم، واستطاع بذلك أن يجعل حياة الناس أكثر راحة ورفاهية. ولنأخذ على سبيل المثال الانجازات الصحية، كالقضاء على بعض الأمراض الفتاكة مثل السل وشلل الأطفال، باكتشاف لقاحات فعالة.

إلا أن هذا الكلام ينطوي على مغالطة أخرى، حيث تهمل الإحصاءات التي تشير إلى الانخفاض الحاد في الإصابات بهذه الأمراض قضية انتشارها بل ونشوئها.

حيث لا يخفى أن الانتشار الهائل لمثل هذه الأمراض إنما كان وليد تلك الحركة العلمية التي أدت إلى ثورات صناعية محمومة فتكت بالقيم

والضوابط الأخلاقية والاجتماعية.

ففي ظل الحركة العلمية الهادرة للنظام الرأسمالي الجشع تولد المشكلات والمصائب، فيستدعى هذا العلم إلى إيجاد حلول لبعضها. لكنه مع كل حل يوجد آلاف المشاكل. وهكذا..

ومن ذلك إطالة أمد عمر الإنسان بوسائل خدّاعة. فإن المعدلات ارتفعت وارتفع معها نسب أمراض الخرف والكآبة وظواهر الانتحار.

يقال ايضا ان الدول الصناعية رفعت معدلات المداخيل لمواطنيها بصور خيالية، فإن العامل البريطاني كان يتقاضى في عصر الثورة الصناعية عدة باوندات شهرياً ليصبح الحد الادنى للدخل الفردي بضع مئات من الباوند. وهذه مغالطة أخرى: لان هذه الاحصاءات تغفل ايضا التحول الكبير لانماط العيش والذي ينبغي دراسته باستحضار أنماط عيش الشعوب الاخرى ومتطلبات حياة عصور ما قبل الثورة الصناعية. ففي عصرنا الحالي ازدادت حاجات الناس وتضاعفت متطلبات العيش الكريم على حساب تضاعف الاجور والمداخيل.

أما إذا تمكن الصالحون من بسط العدالة الاجتماعية وحمايتها بنظام سياسي قوي، فإن الثروات لن تنحصر بأيدي فئة قليلة من الشعب، ولن تكون دُولة بين الأغنياء منهم خاصة، بل ستتحرك صعوداً ونزولاً لتحرك بالتالي عجلة الرفاهية والإنتاج الكبير والاستفادة اللازمة بين جميع فئات المجتمع وفعاليته. وهذا هو المعنى الواقعي لإقبال الدنيا الذي ورد في العديد من الروايات، كما في حديث الإمام الصادق(ع): "**إذا أقبلت الدنيا فخيارها أحق بها من فجّارها**"، وما يستفاد من الوعد الإلهي بوراثة الأرض وما عليها، وإقبال الدنيا على أهل البيت عليهم السلام بعد إدبارها.

وتكمن المشكلة في بعض جوانبها في تلقي مفهوم إقبال الدنيا ببعده الفردي، بمعنى حصول بعض الافراد على ثروة طائلة. وهو مما يرفضه الفهم الشامل للروايات الواردة بهذا الشأن لأن الموعود هو إقبالها كلها على أهل هذا العالم.

هذا، وفي ظل الوفرة ينعدم الكثير من الصراعات أيضاً، ويعيش الناس في راحة من أكثر الضغوطات المعيشية التي يصاحبها على سبيل المثال ضغوط الحاجة الجنسية وما يستتبعها من فساد أخلاقي واسع. ويقبل الناس على المعارف والمعنويات والعمل الصالح و جميع أنواع البر والخير.

وعليه، فإن النظرية الإسلامية للتنمية الاقتصادية تقوم على أساس العدالة الاجتماعية الشاملة التي لا يمكن بسطها إلا في ظل نظام سياسي قوي. فالعدالة تمنع الاحتكار (الذي هو الركن الأساسي للنظام الرأسمالي) وتفرض نمطاً خاصاً من توزيع الثروات مما يؤدي إلى جعل حركة الإنتاج قوية وهائلة.

ونلاحظ أيضاً كيف يمكن للمفاهيم الأخلاقية أن تنحرف عن دورها المطلوب وموقعها الأساسي في المنظومة الدينية بسبب افتقادها للبعد السياسي ـ الاجتماعي. وأن أي مفهوم ديني إذا افتقد هذا البعد الحيوي يتعرض للتشوه بل يخسر روحه التي بها يحقق الغاية من تشريعه.

تغير الثقافة:

تتغير ثقافة شعب ما وتتبدل بتغيّر عناصرها، وذلك في عمليات التفاعل الداخلي والخارجي الذي يكون محكوما بالدرجة الاولى لطبيعة النظام العالمي ومقتضياته الجغرافية والتقنية والامنية والاقتصادية.

فلبنان الذي مثل نقطة استراتيجية في النظام العالمي السابق كان عرضة لعملية تفاعل أكبر مقارنة بجيرانه في العمق الاسلامي. ونظرا لتركيبته الداخلية الطائفية والعائلية، فقد اتسع نطاق التغيير في ثقافته بشكل هائل.

ومثل هذا التغيّر قد يحدث الآن مع الثورة الكبرى في عالم الاتصالات بكل ابعادها في بلدان لم تكن يوما تمثل نقاطا استراتيجية.

هذا التغير الثقافي قد يؤدي الى تغييرات اجتماعية هائلة يستتبعها خلل كبير في بنية العدالة مستواها. مثلما يحدث عندما تتولد طبقات اجتماعية-اقتصادية في ظل احتلال عسكري طويل الامد.

ثم تقوم هذه الطبقات الوليدة والمسيطرة بفرض عناصر جديدة من أجل الحفاظ على مكتسباتها، أو جعل عناصر غير محورية ذات بعد محوري في ثقافة مجتمعها، فتوجد تحولا كبيرا في هوية هذا المجتمع ودوره في النظام العالمي. كتحوله من بلد ذي بعد عربي الى خنجر في خاصرة البلدان الشقيقة.

ومن خلال مطالعة أولية للنظام العالمي نفهم ان التفاعل بين دوله وشعوبه محكوم بالدرجة الاولى لعُقد الهيمنة والتسلط والتمييز العنصري والعقيدة المالتوسية. وهو المسؤول عن الحالة المستمرة للتفاعل السلبي في شتى المجالات، وخصوصا الثقافي منها. وهذا ما ينعكس دوما بسعي القوى المختلفة للسيطرة على الرأي العام بدلا من احترامه، وتغليب نزعة الخوف من الآخر بدلا من السعي للاستفادة من العناصر الايجابية في ثقافته.

هذا، دون نفي الايجابيات في الواقع المذكور. فإن في البين ثقافات **أو عناصر ثقافية داخلية هدامة تسبب لشعوبها الانحطاط، بمعزل عن**

أي تفاعل مع الخارج. كما في بعض الثقافات الافريقية. وفي ظل التفاعل الجديد قد تكتسب هذه الشعوب عناصر ايجابية مفيدة وبناءة. علماً بأن اكثر هذه التفاعلات فرضت بالقهر والغلبة ولم تلاحظ فيها سوى مصلحة المستعمرين الذين احتاجوا للبنى التحتية لتثبيت هيمنتهم واستمرارها لما بعد عصر الاستعمار العسكري.

واذا اخذنا عنصر " النظرة الى العلم (الطبيعي التجريبي)" في ثقافة شعب ما، ووجدناها سلبية حيث تعتبره تراه كفرا والحادا أو تحديا للرب!. فمن المتوقع ان يكون هذا الشعب بعيدا عن انتاج التقنيات الحديثة، ومنها الاسلحة المتطورة. وإذا كانت موقعيته الجغرافية ـ السياسية حساسة، وفي ظل نظام عالمي ذي نزعة استعمارية، فما هو المتوقع لمصير هذا المجتمع؟!

وهل ستأخذ المسألة وقتا طويلا حتى يكون بأسره، بعد سقوطه العسكري ـ السياسي المتوقع، عرضة لعملية تفاعل ثقافي تطال عناصره ومكوناته كلها؟

ان المجتمع الواحد هو مجموعة من البشر الذين تربطهم عناصر مشتركة. فلكي يقال "مجتمع واحد" ينبغي الاشتراك في المبادئ والقيم والمعارف الاساسية والعادات والتقاليد ،وبعبارة اخرى: الثقافة.

فالثقافة هي التي تمثل النسيج الجامع والمشكّل او المادة اللاصقة لهذه الجماعة حيث تتحرك طاقات وفعاليات أفرادها باتجاه واحد على سلم التكامل او التسافل المشار اليه.

ولا يشترط والحال هذه حصول الإجماع في تبني عناصر الثقافة، فالملحوظ هو الاغلبية. كما لا يشترط ان تكون درجة التبني والتطبيق متساوية. فهناك من يطبق وهناك من يسعى للتطبيق، ومنهم من يراه

مقدسا ويجعله شعار حياته أو يكون مدخلاً للانتماء إلى الجماعة.

والعنصر الاساسي الذي يمثل اهم ما في تلك المادة اللاصقة هو ما يتعلق بالقضايا المصيرية، وبتبعها يميز ابناء هذا المجتمع أنفسهم عن غيرهم من المجتمعات.

إلا ان هذه القضايا قد تتبدل، كأن تنشأ اتجاهات أخرى من الداخل وتتحول الى أغلبية. وقد تُحدث انشقاقا عميقا أثناء تحولها لتتشكل بذلك ثقافة جديدة لهذا المجتمع او بلدا يصبح منقسماً الى أكثر من مجتمع.

اذا كان المجتمع يؤمن بأن كتابه المقدس مصون من أي تحريف، وهو في الوقت نفسه يستمد منه أهم تشريعاته وعناصر ثقافته، فإنه قد يرى نفسه في عداء مع أي مجتمع لا يقبل عقيدته المرتبطة بكتابه وقدسيته. وقد يحمله العداء على شن حروب وتأجيج نزاعات كبيرة. حتى إذا نشأت عقيدة من الداخل، ترفض المبدأ المذكور، تحولت الى اتجاه عام، فإذ بهذا المجتمع يقبل مبدأ التعددية والاعتراف بالآخر واحترام العيش المشترك!

لا تتبدل العناصر الثقافية بسرعة تبدل المعارف التي تنتجها المؤسسات والمراكز العلمية. فإذا كان الانتاج المعرفي ـ المعلوماتي يسير بسرعة تطور وسائل الاتصال، فإن الثقافة لا تتبدل بهذه الطريقة.

هدفية نشر العلم

عن عبد الله بن سنان قال: اردت الدخول على ابي عبد الله عليه السلام فقال لي مؤمن الطاق استأذن لي على ابي عبد الله عليه السلام فقلت: نعم.

فدخلت عليه فاعلمته بمكانه فقال: لا تأذن له علي، فقلت جعلت فداك

تعلم انقطاعه اليكم وولاءه لكم وجداله فيكم ولا يقدر احد من خلق الله أن يخصمه فقال: بل يخصمه صبي من صبيان الكتّاب فقلت: جعلت فداك هو أجدل من ذلك فقد خاصم جميع أهل الأديان فخصمهم فكيف يخصمه غلام من الغلمان وصبي من الصبيان؟ فقال: يقول له الصبي اخبرني عن إمامك، أمرك ان تخاصم الناس؟ فلا يقدر أن يكذب عليه، فيقول لا. فيقول له فأنت تخاصم الناس من غير ان يأمرك إمامك، فأنت عاصٍ له فيخصمه. يا بن سنان لا تأذن له علي فإن الكلام والخصومات تفسد النية وتمحق الدين».

هذا الحديث واضح الدلالة في ان التحرك والنشاط الفكري او الثقافي ينبغي ان يكون تحت لواء العمل السياسي المتمثل بالقيادة الشرعية ومشروعها الالهي.

ففي قضية التعليم والعمل الثقافي لا ينبغي الاقتصار على الاطلاق الدلالي الذي قد يستفاد من جملة من الروايات الواردة في فضيلة العلم والتعليم. فان نشر العلوم والمعارف يخضع لاعتبارات عديدة، جلها يتعلق بدور العلم في حياة الانسان والمجتمع وأهدافه التي تحددها الأهداف والغاية الكبرى للدين. والعلم في التصور الاسلامي لا يطلب لذاته بل لغيره فالغاية هي العبودية لله. كما أشار الامام الصادق عليه السلام بوصيته لعنوان البصري "أطلب العلم وأطلب منه العبودية" ومن هنا كانت المعرفة الحاصلة مقدسة وعظيمة. كما ان متطلبات العبودية وأداء التكليف الالهي ان يتحرك المؤمن العالم بحسب الأولويات التي حددتها الشريعة والتي يمكن التعرف عليها من خلال الكشف عن القيادة وتعاليمه. فالأولوية للمجتمع وان كانت النتيجة عائدة للأفراد ينبغي ان تتجه جميع الطاقات نحو ارساء قواعد العدالة الاجتماعية ووحدة المجتمع وقلع الفتن، بما يضمن تحقق الغايات والأهداف الشرعية للسياسات وعليه لا تكون الحركة

التعليمية منفصلة عن الاهداف الكبرى للدين الالهي المتمثلة بعمارة الارض وتغييرها لتحقيق الجنة الموعودة..

هذا، وإن التشعبات الكثيرة والتعقيد المفضي للحيرة والتنازع الذي حصل داخل جسم الامة في حركتها الثقافية يرجع في الدرجة الاولى الى اغفال هذه النقطة حيث أعتُبر طلب العلم لذاته أمراً مفروغاً منه، وعُد التعليم لاجل نشر الحقائق، امراً فوق كل اعتبار.

نشاهد ذلك بوضوح في حركة بعض المفكرين وهم يتحركون للرد على انحرافات عقائدية تبرز هنا أوهناك، غير آخذين بعين الاعتبار ضرورات وحدة الكلمة ومقتضيات الزمان والأزمات والتحديات التي تعصف بالمجتمع، فيعتبرون الرد على البدع واجبا شرعيا يحدده كل مكلف بنفسه، أو انه تكليف وصلوا اليه باجتهادهم الذي يلزمهم.

انها احدى المشكلات الاساسية التي تبين لنا ازمة الثقافة، وتجعلنا ننظر الى الازمة الثقافية من زاوية جديدة، مقابل تلك النظرة التي تحصرها في الجهل ونقص المعلومات وضعف الاطلاع او المطالعة.

ان العمل على ترويج الحقائق ينبغي ان يأخذ بعين الاعتبار ما سيؤدي اليه نشر هذه المعارف والقول بأن الحقيقة دوما مفيدة أمر بعيد عن الصواب والحكمة وكفى بالمرء جهلا ان يقول كل ما يعلم وفي الحديث عَنْ عَبْد اللهَّ بْن سُلَيْمَانَ قَالَ سَمعْتُ أَبَا جَعْفَر ع يَقُولُ وَ عنْدَهُ رَجُلٌ منْ أَهْل الْبَصْرَة يُقَالُ لَهُ عُثْمَانُ الْأَعْمَى وَ هُوَ يَقُولُ إنَّ الْحَسَنَ الْبَصْريَّ يَزْعُمُ أَنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ الْعلْمَ يُؤْذي ريحُ بُطُونهمْ أَهْلَ النَّار فَقَالَ أَبُو جَعْفَر ع فَهَلَكَ إذَنْ مُؤْمنُ آل فرْعَوْنَ مَا زَالَ الْعلْمُ مَكْتُوماً مُنْذُ بَعَثَ اللهَّ نُوحاً ع فَلْيَذْهَب الْحَسَنُ يَميناً وَ شمَالاً فَوَ اللهَّ مَا يُوجَدُ الْعلْمُ إلاَّ هَاهُنَا.

إن قانون سرعة التغيير الثقافي مقارنة بالتحولات الأخرى هو قانون غير مطرّد ولا يكون حاكماً دوماً.. فقد يقود عملية التغيير من يتمتع بقداسة فائقة تهيمن على مختلف قضايا وهموم شعب ما وتصل الى درجة الاولوية المطلقة. كما حصل في حياة الانبياء أو في التجربة الايرانية مع الامام الخميني قدس سره، والذي أضحى قدوة ومرجعا يتمتع بنفوذ معنوي قل نظيره.

وبالالتزام بقاعدة تبعية جميع الاعمال للولاية وضرورة انضوائها تحت لوائها في مشروع واضح المعالم والاهداف، نضع حدا لعملية الهدر الكبير في الجهود العلمية، مع ما يستتبعها من هدر لا يمكن تصوره على مستوى توجه الطاقات نحو الاهداف المنشودة. وهذا ما يتطلب وقوفا عند جميع المعارف وتحديد ما هو:

1. بديهي منها، مما لا يلزم العمل عليه تحقيقا ونشرا الا في اطار التوضيح والتذكير ورد الشبهة مقابل البديهة.
2. وما لا ضرورة لمعرفته لعدم ارتباطه بالمشروع او بالمرحلة التي نمر بها. ثم تحديد:
3. المعارف الضرورية التي تحتاج الى بحث وتنقيح وترويج ودعم بحسب الوسائل المتاحة.

هذه نقطةٌ تسلط الضوء بشكل كبير على ما نحن بصدده في تحديد معنى المشكلة الثقافية. فعند تحديد العناصر الثقافية المؤدية الى تكامل المجتمع او تسافله تكون تحركاتنا العلمية ذات معنى واضح بعيدة عن الاهواء والتضييع. وذلك لأننا سننطلق في تحديد المعارف وأنواعها من تلك الرؤية العلمية الدقيقة للمجتمع وتكامله ودور مختلف مجالات المعرفة في مسيره ومصيره.

ثم ينبغي القيام بدراسة هذه العناصر مجتمعة او كل عنصر على حدة انطلاقا من التفاعل الثقافي ـ الذي يرتبط ارتباطا كبيرا بمقتضيات النظام العالمي وتحدياته ـ وانتهاء بما سيؤول اليه المجتمع على سلم التكامل والتسافل.

وبالتحليل العميق ندرك ان العنصر المحوري في كل ثقافة هو ما يتعلق بالقضية المصيرية الاولى لكل مجتمع، وهي قضية الحكم والنظام.

فلقد كان للحكومة بكل أشكالها، ولا زال، الدور الاكبر في تشكّل القضايا الأخرى في الحياة وتوجهها ومصيرها، حتى قيل ان الناس على دين ملوكهم. هذا، ولا يشك من له أدنى دراية بالمجتمعات البشرية أن الحكومات كانت تمثل نقطة انطلاق العادات والقيم والعقائد المختلفة. وقد لعبت هذه الانظمة السياسية دور المفسر للدين، والمرجعية التأويلية للمعارف الانسانية في مختلف عهود البشرية.

ولا شك بأن تأثير كل حكومة على شعبها يختلف بدرجته وتفاصيله تبعا لعوامل عدة، لسنا الان بصدد دراستها. الا ان الحكومة كانت وستبقى المحرك الاساس والعمود الفقري لبنية المجتمع الثقافية.

وقد يقال ان مثل هذا التحكم والتوجيه كان من مميزات العهود السابقة او انه يقتصر على الانظمة الشمولية الدكتاتورية، بخلاف ما يحدث اليوم، فان سلطة الحكومات تراجعت لمصلحة الشركات العابرة للقارات، والتي أضحت البديل لسلطة الدولة القومية؛ هذه الدولة التي مثلت آخر ما انتجته التجربة البشرية!

وهنا لا بد من إعادة تعريف الحكومة وتمييزها عن إدارة الدولة. ذلك لأن الحكومة تمثل النظام السياسي الذي يتحرك من خلاله أبناء المجتمع في

فعالياتهم ومشاركتهم الاجتماعية وفي رسم مصيرهم على كافة الاصعدة.

فإذا كان النظر إلى الدولة القومية بشكلها التقليدي المكوّن من السلطات الثلاث، فلا شك بأن العولمة باتت تحد من سلطتها ونفوذها المعهود، الذي تمتعت به منذ تشكلها على انقاض الامبراطوريات والممالك.

بيد ان الحكومات المعاصرة تمكنت من معرفة عوامل التأثير وأساليبه المتطورة، وأضحت الحكومات الكبرى اليوم واقفة على مؤسسات عملاقة للتأثير والتفاعل الثقافي.

ان الحكومات المصنفة تحت عنوان الليبرالية، وان كانت تسمح بالتبادل الحر لكل عناصر الثقافة، لكن ذلك لن يتم الا بعد تأكدها من إحكام سيطرتها وإدارتها لهذا التبادل. وهي تجيد فنون ادارة هذه الوسائل واستخدامها من أجل تكوين الرأي العام في مختلف القضايا المصيرية والجزئية في الحياة، بمستوى قد يقال بأنه لم يتحقق من الناحية الكمية على يد الانبياء مع شعوبهم!!.

فأول قضية يجب ان ندرسها في اي مجتمع هي نظرة هذا المجتمع الى النظام السياسي ومدى تبنيه له. وهو أمر ليس بالصعب وخصوصا في تلك المجتمعات التي تعيش حالة من الثبات والاستقرار على مستوى نظام الحكم.

اما المجتمعات التي تعيش حالة تذبذب واضطراب ملحوظ لجهة تبني وتأييد النظام، فإنها تحتاج الى المزيد من الدراسة لمعرفة اي نظام ستتبنى في المستقبل المتوسط او البعيد، بحسب التفاعل الحاصل وفق معادلات النظام العالمي.

على ضوء ذلك يمكن ان نبحث عن المكوّنات الاخرى في ثقافة الشعب فيما يتعلق بنفس النظام السياسي. ونعتبر نظامه السياسي محورا، فندرس على أساسه المكونات الاساسية في ثقافته، مثل نظرة هذا المجتمع الى الزواج، والعمل، الابداع، العلم، التعلم، الضيافة، والروح القومية وغيرها..

وسوف نلاحظ بوضوح ان الانظمة السياسية المستقرة التي سادت لفترات زمانية مهمة، استطاعت أن تدخل الى أعمق القضايا المكونة للثقافة والمتعلقة بمسائل في غاية الاهمية والحساسية، ثم صاغتها على شاكلتها ووفق ما تقتضيه مصالحها.

فلو طرحنا هذا السؤال حول الاله والمقدس عند شعب ما وقلنا:

من هو إله الشعب الامريكي عموما؟

والمقصود بالدقة هو النظرة السائدة حول اله العالم وأهم مشخصاته وصفاته، بمعزل عن المعبود الواقعي الذي قد يكون تلك العملة الورقية الخضراء. لربما وجدنا هذا الإله في التصور الامريكي ينسجم مع العناصر الاساسية والجوهرية المكونة للنظام السياسي. فهو إله مهيمن اكثر مما هو محبّ. كل ذلك، لأن النظام السياسي الامريكي قائم على القدرة المادية والهيمنة والغلبة.

واذا شاهدنا بعض المجتمعات التي تعيش فصلا تاما بين الاله والنظام السياسي، لوجدنا ممارساتها وطقوسها العبادية المتعلقة بالاله محدودة، وتقتصر على هامش الحياة، ولوجدنا ان صورة الإله فيها غير قادرة على مواجهة صورة إله شعب استطاع أن يهيمن عليها أو يلحق بها الهزيمة.

فعندما تكون قضايا المجتمع الاساسية في مكان والإله المتصور في مكان

آخر، يفقد هذا الاله دوره المحوري! وعندما يتفاعل أبناء هذا المجتمع بثقافتهم مع ثقافات اخرى تمتلك نظرة أعمق أو أكثر حضوراً للإله، فإنهم سيعرضون عن إلههم، ليتبنوا عقيدة الاله الذي له المزيد من التدخل في حياتهم السياسية (التي تعد أساس قضاياهم الأخرى).

ان مجتمعا كالمجتمع الكوري الجنوبي الذي يلعب الإله في ثقافته دورا هامشيا في الحياة، هو خير مثال على ما نقول. يذكر صاموئيل هانتنغتون في كتابه المشهور بصدام الحضارات "ان هذا المجتمع بأغلبيته البوذية الساحقة كان يتضمن أقلية مسيحية تراوحت بين واحد الى ثلاثة بالمئة من عدد السكان عام 1950. وقد تبنت كوريا الجنوبية نظام السوق (بعد الحرب الكورية)، ومع بدايات الثمانينات من نفس القرن وصلت نسبة المسيحيين الى اكثر من ثلاثين بالمئة".

ففي ظل التحولات الكبرى التي أحدثتها التغييرات السياسية والاقتصادية، إحتاج الشعب الكوري الى إله أكثر تدخلا في حياته التي باتت تشهد مثل هذه التحولات الكبرى!

وبناء على ما ذكر اعلاه يمكن ان نستخلص القواعد التالية:

1. كل عنصر ثقافي بمقدار ما يبتعد عن المحور يصبح اكثر عرضة للتبدل والتغيير عندما يتعرض للتفاعل مع عنصر أرقى منه واقوى.
2. رقي او تدني اي عنصر ثقافي لا يكون بحسب النظرة الايديولوجية انما بحسب ارتباطه بالنظام السياسي.

ومثال آخر

في النظام الدكتاتوري الذي يتبناه الشعب (التبني الذي يحصل بعد سقوط المقاومة)، فإننا نجد هذا الشعب بطبيعته يمارس الدكتاتورية في كل نواحي حياته: الاب داخل أسرته، والأم مع أبنائها.. وهكذا في علاقة الرؤساء بالمرؤوسين في مختلف مؤسسات المجتمع. ولا ينبغي أن نتوقع ان يكون هذا المجتمع في علاقاته الجزئية الخاصة والاجتماعية ديمقراطيا يمارس طريقة الشورى في ادارة شؤونه.

لهذا، نلاحظ ان الانظمة الدكتاتورية تزدهر في المجتمعات القبلية كالمجتمع الافغاني او المجتمع الباكستاني او العراقي أكثر من غيرها.

نموذج آخر: فيما يتعلق بالعدالة:

المجتمع اللبناني بنظامه الطائفي الذي يقوم على المحاباة باعتبارها الوسيلة الأساسية للتوظيف وتولّي المسؤوليات بعيدا عن الكفاءة والإختصاص. هذه المحاباة أضحت ظاهرة عامة في معظم مؤسسات هذا المجتمع. بل إن تلك المؤسسات الناشئة القائمة على قاعدة المعارضة لهذا النظام، فإنها تعاني من هذه العقلية التي تمثل قيمة راسخة في ثقافة اللبناني.

في المقابل هناك مجتمعات الفت الطائفية ولجأت الى الكفاءة لإحتياجها المبرم الى الطاقات الفاعلة في ظل منافسة شرسة مع مجتمعات أخرى، ولم تعد زعامتها قائمة على أساس التمترس الطائفي والنزاع الداخلي.

العناصر التي نريد ان ندرسها الآن هي العناصر المحيطة بالعنصر المحوري والذي يشكل القضية الاساسية الاشد مساسا بمصير وحاجات

هذا الشعب.. فما هي هذه العناصر؟

يمكن عجالةً، أن نضع اليد على مجموعة من العناصر الثقافية المحيطة بالنظام السياسي، وهي:

نظرة الشعب للعدالة والظلم

قيمة الانسان

كيف يتبنى المجتمع الحرية او كيف ينظر اليها؟

نظرته الى الرفاهية ؟

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

الطبيعة والبيئة والموارد: كيف ينظر الى النعم والموارد؟

الاله أو مبدأ العالم ومرجعه

المؤسسة الدينية

قيمة العلم

الانتماء (نحن والآخر)

نظرة الشعب الى عالم المعنويات والحاجات غير المادية

حضور الغيب في حياته

ما هي أنواع الكمالات التي يسعى لتحقيقها

بعد تحديد هذه العناصر ينبغي اعتماد المنهج الاستقرائي لمعرفة ثقافة المجتمع. وفي المرحلة التالية علينا أن ندرس التفاعل الذي يحدث داخل هذه العناصر، والمؤثرات الآتية من الخارج. وقد يقتصر هذا التفاعل بكل

أشكاله على بعض العناصر الفلكية. وربما يطال العنصر المحوري فيها، أي النظام السياسي. حيث يناقش أبناء هذا المجتمع بحيوية كبيرة شكل نظامهم بحيث يصل الامر الى ضرورة تغييره ولو بالقوة.

واذا وقفنا عند موضوع الحرية فأننا نجدها في بعض المجتمعات قريبة جدا من العنصر المحوري بحيث يؤثر تفاعلها تأثيرا بارزا في النظام

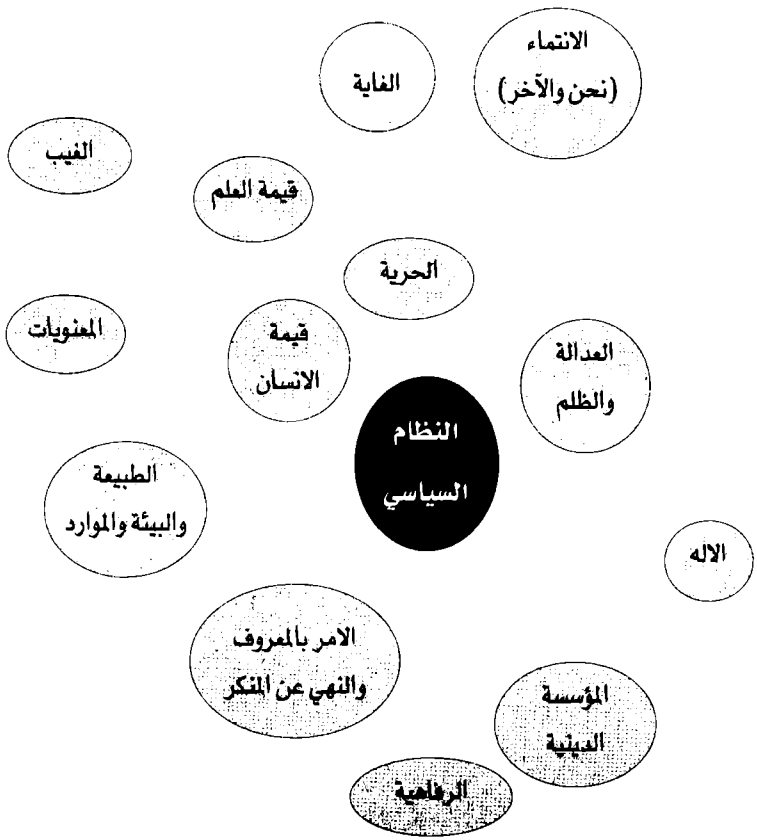

السياسي بخلاف مجتمعات أخرى. وذلك يعود الى جملة من العوامل المميزة..

فما هي نظرة الناس للحرية ؟ فهل هي:

- الحرية وفق الاطروحة الغربية ـ الحرية المطلقة: لا حد امام الانسان كفرد.
- الحرية الاشتراكية: التي ترسم حكومة الحزب الواحد أكثر قوانينها.
- الحرية التي تقف عند حدود الدين

وفي المقابل قبول العبودية او الاستعباد: فلا يرى الانسان من معنى للحرية السياسية.

وفي البداية يجب دراسة هذه النظريات، ومعرفة كيف تشكلت وعلاقتها بالنظام السياسي. فقد لا تتبناها الدولة لكنها تقوم بتصديرها الى المجتمعات الاخرى لمصالح معينة. ولا بد من الاشارة الى مسألة مهمة، وهي التي تتعلق بأولوية دراسة أي عنصر أو مكون ثقافي، وضرورة تحديد المسؤولية والعمل الفكري في هذا المجال. كل ذلك على أساس مدى تأثيره على العنصر المحوري، لكي نجتنب الخوض في الترف الفكري أو اهدار الجهود.

العلاقة بين المحور والعناصر الفلكية :

والمسألة الفائقة الاهمية في بحث الثقافة تدور حول معرفة العلاقة ما بين العناصر الفلكية الفرعية والمحور الاساسي الذي ذكرناه، اي معرفة

عملية هذا التفاعل. هذه نقطة عميقة تشكل ذروة الوعي في المسألة الثقافية. وقد عرفنا ان هناك ثقافات قد تتسلل الى المجتمع، وتحدث تغييرا واضحا في بعض العناصر الفرعية. وفي بعض الاحيان قد تنجح في ايجاد تحول جوهري. لكن السؤال الأهم هو ما يتعلق بحركة التفاعل بين هذا النظام وعناصره، وكيف تؤثر فيه سلبا او ايجابا وكيف يؤثر بها؟ حتى يأتي دور علاقة هذا التفاعل بأسره مع الحركة التكاملية للمجتمع وفق السلم الآنف الذكر.

المسؤولية تجاه المعرفة

في العلم الواجب:

روي عن رسول الله (ص) انه قال: "**العلم نقطة كثرها الجاهلون**".

للعلم منزلة رفيعة في الاسلام، وله أبعاد عديدة، ويتفرع عنه قضايا مختلفة ترتبط بموقعه ودوره وتأثيره على حياة الانسان في الدنيا والاخرة والمسؤولية تجاهه. ومن جملة القضايا التي تحوز على أهمية فائقة في موضوع العلم والتي قلما يتم التطرق اليها ـ ربما باعتبارها من المسلمات ـ قضية العلم الذي يجب على الانسان تحصيله؟

فما هو حجم ومدى ونوعية المسائل أو المعارف التي يجب على المكلف تحصيلها بعد التسليم بوجوب التعلم أو تحصيل العلم؟. ولو سلمنا بوجوب طلب العلم مطلقا، فإنه لا يشكل دلالة على وجوب التحرك العلمي أو التعلم باستعمال الوسائط العادية، كالرجوع الى العلماء والكتب. ولو تبين أن العلم من أعظم الكمالات الانسانية، فلا يستلزم ذلك وجوب السعي المتعارف لتحصيله.!! واذا كانت سرعة التعلم أو الفهم توفيقا الهيا فلا يدل هذا على الوجوب الشرعي لنيل هذا التوفيق.. قد يكون وجوب الطلب بمعنى الدعاء والسؤال من الله، وقد يكون هذا التوفيق وذاك الكمال مما يفاض على

الانسان دون حاجة منه الى السعي العملي المتعارف..

لقد تعرض بعض الباحثين في القضايا القيمية والمعرفية الى مثل هذا البحث، ولكن لا يبدو انه قد حصل على حقه من الدراسة والتنقيب.. ربما لاعتبار الامر من المسلمات أو الضروريات التي لا تحتاج الى إعمال المنهجية العلمية المستخدمة في البحث عن التكاليف الالهية الشرعية..

و يبدو ان معالجته قد حصلت من خلال المرور السريع على الروايات، دون التدقيق الذي نلاحظه في القضايا الفقهية والابحاث الاجتهادية، التي يستقصي الفقهاء فيها كل ما يتعلق بالموضوع. قبل اصدار الحكم النهائي، وبعد الفحص الكامل وبذل كامل الجهد في معرفة كل جوانبه. ولهذا يمكن القول ان ما كتب في هذا المجال لم يصل الى حد الدراسة العلمية المعتبرة أو التي تؤسس لحركة إجتهادية جدية..

ان أبرز مميزات الفقه والاجتهاد تكمن في سعي الفقيه المجتهد الى معرفة حكم المسألة التي يبحث حولها بالرجوع الى كل ما صدر من المنابع الاساسية للتشريع الاسلامي، باعتبار ذلك المرجعية الوحيدة لتحقيق براءة الذمة أمام الحق سبحانه.. ولهذا يبتعد الفقيه الواقعي عن إعمال الهوى والرأي الشخصي مهما بدا ذلك مستحسنا. وبموضوعية تامة يتقدم نحو دراسة المسألة متخلصا من كل الاحكام أو الآراء المسبقة..

لا نجد فيما وصل الينا بحثا فقهيا شاملا حول مسؤولية المكلّف في طلب العلم الذي يعد من أكثر القضايا العملية حساسية في عصرنا الحالي.. فاذا سأل المكلف عن حجم المعارف التي يجب عليه تحصيلها، يصعب عليه أن يصل إلى حكم شرعي واضح نابع من البحث الفقهي الاجتهادي الاصيل..

قد يبرر ذلك بوجود نوع من التسالم على النتيجة، أو باعتبار المسألة

خارجة عن نطاق الفقه والاحكام وداخلة في مجال القضايا القيمية والاخلاقية، أو بعدّها من فروع المباحث العقائدية، أو بكونها من جملة الضرورات الدينية التي لا تقليد فيها..

واما التسالم فانه أبعد شيء عن المبررات المعقولة، نظرا لخلو أكثر المصنفات والكتب المعدة لغرض بيان الاحكام من التطرق اليه ولو بالاشارة، بالاضافة الى الاختلاف الواضح بين الفقهاء في الكثير من جوانبه.

وأما اعتباره خارجا عن نطاق الاحكام، فلا نعرف لهذا الرأي دليلا بعد الاعتراف بأنه من جملة القضايا العملية التي تقع ضمن مسؤولية المكلف، مما يتطلب تحركا جوارحيا، قد يصل الى حد مزاحمة العديد من المسؤوليات الشرعية الاخرى.

عندما نتحدث عن العلم الواجب تحصيله فالمقصود ما يرتبط بالمسؤولية الشرعية التي ينبغي أن نرجع في تحديدها إلى الشارع المقدس. ومن هنا ينبغي أن يصدر حكمنا في هذا الصدد على ضوء التحقيقات التي تستقصي المصادر الأصيلة وتدرسها دراسة تحليلية وفق القواعد الأصولية، دون إعمال الرأي أو الاستحسان أو التسامح انطلاقاً من قاعدة الحسن والقبح العقليين. فبالرغم من تحسين العقلاء للعلم وأهله، لا يمكن الركون الى هذا التحسين العقلي أو العقلائي لاصدار حكم شرعي في مجال تحديد النطاق أو الدرجة العلمية الواجب تحصيلها أو نوع العلوم والمعارف التي ينبغي إكتسابها. فليس كل ما حسن عقلاً وجب شرعاً، لأن المستحسن قد يكون مستحبا أو يكون ما حسن منه في درجة من درجاته أو بعد من أبعاده كما هو حال العلم بالسحر الذي قد لا يستحسنه العقلاء باعتبار مضاره أو علم الكهانة أو العلم بأنساب العرب الذي لا يضر من جهله ولا ينفع من

تعلمه. كما انه ليس كل ما قبح عقلا حرم شرعا. والحسن لا ينتج التكليف المباشر، فقد يكون أمر ما حسنا جدا وممدوحا للغاية، الا انه ليس سوى ثمرة أو ثواب الهي خاص. ومن الامثلة على ذلك الفطرة الانسانية التي هي من اعظم النعم، ولكن الانسان غير مسؤول عن تحصيلها وإن كان مسؤولا عن المحافظة عليها.

عندما ننطلق في بحثنا حول العلم الواجب من قاعدة الحسن والقبح العقليين، قد يحصل التسامح في اطلاق بعض الأحكام، فإذا كان العلم نوراً وخيراً، فإنه وفق هذه القاعدة يكون واجبا على كل حال!!

ومن أجال النظر في النصوص الدينية المتعلقة بالعلم، يمكن الادعاء بأنه لن يجد فيها نصا واحدا يدل على وجوب تحصيل المعرفة الفلانية أو العلم الكذائي على مستوى السعي العملي المتعارف بين البشر. أجل، قد يُدّعى إمكانية التمسك بالاطلاقات الواردة بشأن طلب العلم لإثبات وجوب السعي في جميع الاحوال.

وللأسف، فإن هذا التساهل يكشف عن وجود ثغرة في الدراسات الفقهية الشيعية بل وفي الفقه الاسلامي بشكل عام، وذلك فيما يتعلق بتحديد الوظيفة الشرعية والإلهية تجاه أمر في غاية الحساسية والاهمية، نظرا لما له من دور كبير في صياغة شخصية الفرد والمجتمع الاسلامي.

هناك عدد كبير من الروايات التي تمدح طلب العلم أو طلابه دون أن تحدد الموضوع المطلوب تحصيله أو المستوى المطلوب والمدى الممكن. وهنا يُعمل البعض قاعدتي الحسن والقبح العقليين والاطلاق في مفاد الادلة ليخلص إلى أن لا حد لطلب العلم، وما من حقيقة في الوجود لا يستحسن السعي من أجل التعرف إليها..

ولكن أكثر الفقهاء يلتزمون بهذه النتيجة، كما يستفاد من فحوى كلماتهم، ومن بعض الموارد التي أوردوا فيها النهي عن تعلم بعض العلوم، أو موارد الحكم بالوجوب الكفائي..

ويظهر ان عدم وضوح قضية "العلم الواجب" قد أدى إلى مشاكل كثيرة. و لعلنا نستطيع أن نقول أن أهم مشاكل ومصائب المجتمع الاسلامي ترجع إلى هذه النقطة بالتحديد. فلو اتجهت الجهود العلمية التي يقوم بها طلاب العلم والعلماء بالاتجاه الصحيح وتركوا ما لا ينبغي الاشتغال بتحصيله أو تعليمه، لوفروا على الأمة الاسلامية الكثير الكثير من الجهود وتقدموا بها نحو الرقي الحقيقي.

المشكلة الناجمة عن عدم تحديد العلم الواجب هي من مشكلات الدرجة الأولى، وليست من المشكلات الثانوية. وما لم نتمكن كمجتمع ذي توجه ديني عام من حل هذه المشكلة سنبقى نخوض في الكثير من الازمات والنزاعات التي يعقبها مئات المشاكل الأخرى.

وبالرغم من اتفاقنا على ضرورة الرجوع إلى الشريعة في تحديد هذا الموضوع والأحكام المتعلقة به كونه من المسائل التي تندرج تحت الوظائف العملية للمكلفين، فان هذا الموضوع لم يلق من الجهد العلمي والدراسات الفقهية ما يستحقه.

وانطلاقاً من هذه المنهجية في التحليل العلمي: عندما نسبر أغوار الآيات الشريفة والروايات المنقولة عن أهل بيت العصمة والطهارة فيما يتعلق بطلب العلم ومدياته، ونتأمل ملياً في مجموعها، نصل في استنتاج أولي إلى أن الواجب على الانسان في تحصيل العلم الأمور التالية:

أولاً: المسائل التي تدخل ضمن نطاق التعبد المحض،مثل مسائل الصلاة

والصوم والحج وغيرها من العبادات الخاصة، حيث لا سبيل للوجدان او العقل العادي للوصول إلى أحكامها، وحيث أن أداءها وامتثالها مرهونان بمعرفة ذلك وجب تعلمها بأية وسيلة كانت.

وقد نجد ثمة امور أخرى في هذا المضمار تتعلق بحقوق الناس وقضايا المجتمع وتنطوي على جانب مهم من التعبد، يعجز العقل العادي أن يصل إليها بمفرده. وكمثال على ذلك قضية الربا التي تنطوي على آثار هدامة للمجتمع يعقلها الانسان بوجدانه وحسه المشترك إلا أنه يعجز عن تحديد تفاصيلها وأحكامها!

وما تقدم لايتنافى مع ما ورد بأن الانسان قد يتعمق ويرتفع في مدارج المعرفة إلى درجة يستطيع فيها أن يكشف عن القبح في مثل هذه الامور مهما خفيت. إلا أن الله تعالى قد وضع عن عامة الناس مثل هذه الوظيفة وفتح لهم بابا أيسر لتشخيص وظائفهم ومسؤولياتهم.

هذا هو القسم الأول من المعارف التي يجب على الانسان أن يسعى إلى تحصيلها بمختلف الوسائل المتاحة. وهي جميعا مما يدخل ضمن دائرة مسائل الابتلاء سواء كان شخصيا او متعلقا بالمجتمع وأفراده.

ثانيا: النوع الآخر من المعارف يدخل في إطار الواجب الثانوي، وهو يتعلق بالضرورات الاجتماعية التي تقتضيها الظروف الزمانية، والبرنامج العام للولي ومشروعه في قيادة المجتمع، فيجب فيها تحصيل المعرفة بمجموعة من المهارات مثل قيادة السيارات والالمام ببعض المسائل العسكرية، الهندسية، الطبية وما شاكل. ومن الملاحظ أن مثل هذا الواجب الثانوي يقع ضمن نطاق الواجب الكفائي الذي يسقط عن المكلف إذا قام به غيره.

وباستثناء ذلك لا يوجد وجوب شرعي بتحصيل أية معرفة اخرى!

نعم قد يستفاد من جملة من الروايات ضرورة سعي الجاهل الذي اشتبهت عليه الأمور، وخصوصا في المسائل العقائدية والدينية، للتعلم من أجل رفع الجهل وحل الشبهات.

موقعية العلم بين سائر الكمالات:

تحفل الروايات بالثناء والتمجيد للعلم، والعلماء، وطلاب العلم، بما يدانيه اي مديح آخر. وسر ذلك يرجع إلى مسألة تتمتع بأهمية فائقة، وهي أن الفضائل العملية والنفسانية الأخرى، وفي اي مرتبة كانت، لا ترقى إلى مستوى هذا الكمال، بل تتبعه وتلحق به. فالعلم من الكمالات الذاتية للانسان، وهو مقوّمٌ لانسانيته في جميع مراتبها. ولهذا، إذا خلا الانسان من العلم بالمعاني التي سيشار إليها لاحقا، يكون قد خلا من الانسانية، فيدخل في زمرة الأنعام، بل أضل سبيلا.

ومثل هذه المنزلة الرفيعة لا يمكن أن تعطى لأي عمل مهما كان عظيما وصالحا ومطلوبا كالجهاد في سبيل الله تعالى، الذي يعبرّ عن وجود الاحساس الانساني الصادق.

وسر ذلك أن العلم مقوم للانسانية في جميع الأحوال بينما يعبرّ الجهاد عن هذه الانسانية في الحالات الضرورية أو الاستثنائية التي تعيشها البشرية، ولهذا إنحسر الجهاد في دائرة الوسيلة وارتقى العلم الى مستوى الغاية. فإذا كان الجهاد في سبيل الله مقوّما للافعال ومعبرّا عن الحسن الفعلي بأجمل صورة، فإن العلم مقوّم للذات ويعكس جانب الحسن الفاعلي بل الذاتي للإنسان. وهكذا قد نقترب من معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول: "أس الأعمال وسنامها بعدمعرفة الله ورسوله الجهاد

في سبيل الله".

المعاني المختلفة للعلم في النصوص:

يتبين للمتمعن في الروايات الشريفة أن العقل هو صاحب المدح الحقيقي وراء مدح العلم. وأنما كان العلم ممدوحا ومطلوبا حينما صار من جنود العقل ووزرائه. فالعلم مطلوب إذاً عندما يكون تحت ظل العقل وكنفه ويصبح مذموما إذا خالف العقل أو خرج عن عقاله.

ونجد في روايات أخرى مدحاً وثناءاً على العلم بمعنى التعلّم. فمن أعطي قوة العلم وسرعة الفهم كان من أهل الخير الذين يريد الله بهم خيرا كثيرا. ولعل قسما مهما مما ورد في مدح العلم يرجع إلى هذا المعنى الذي يحتاج اقتناصه إلى تأمل خاص. وهذه القابلية هي التي يعبرّ عنها أحيانا بالروح العلمية التي يقابلها البلادة الذهنية والحمق. ويتضح هذا المعنى أكثر عندما نلاحظ أن العلم قد أدرج ضمن الفضائل الاخلاقية. وقد يستخدم في هذا المضمار تعبير" الفهم " أو "الفقه" عوضا عن العلم. ومثل هذه الخصلة أو الميزة تعدّ ثمرة طيبة لحركة الانسان المعنوية وقد يكون موهبة إلهية سابقة، اذ كليهما من المواهب الإلهية.

نحتاج الى استحضار المعاني المختلفة للعلم عند مطالعة الروايات، كي نعرف المعنى المقصود بالمدح الوارد فيها. ومن الواضح أن ذهن المتشرعين والمتبحرين في النصوص الدينية الشريفة لا ينصرف عند الحديث عن العلم إلى ما اصطلح من العلوم المتعارفة كالأصول والفلسفة والطب والهندسة.

وبالرغم من أن لكل علم من العلوم المشهورة منهجا خاصا للبحث

والسعي لكشف الحقائق (وهـذا المعنى يتقاطع مع أحد معاني العلم المستفادة من النص الديني)، وبالرغم من أنها تنتج في أغلب الأحيان صورا مطابقة للواقع بكل أبعاده، إلا ان الادعاء بان المقصود من لفظ العلم الوارد في النصوص الدينية هو العلم الفلاني أو الكذائي يبدو بعيدا عن المذاق السليم والفهم الدقيق.

دور العقل السليم في نيل العلم:

ان كل ما يتعلق بالرؤية الكونية ومعرفة الوجود يمكن اصطياده بالعقل الحر. فالعقل إذا تحرر من أسر الأهواء، وانطلق في فضاء الكون والوجود، يقدر على سبر أغواره وكشف حقائقه مهما عظمت.

لقد زود الله تعالى الانسان بل أفاض عليه، ولا زال في كل آن، عقلا قادرا على كشف جميع الحقائق دون أن يحتاج الى وسيلة أخرى. إلا أن البشرية وطوال تجربتها المديدة لم تحرر العقل ليؤدي دوره الأساسي، فتركزت معظم الجهود العلمية والمعرفية في نطاق النزاعات الفكرية والجدالات المذهبية. واتجه العقل تبعا لذلك نحو الدور السلبي في كشف المغالطات ورد الشبهات وحل العقد بدلا من أن ينطلق في ذلك الفضاء الرحب اللامتناهي، وتم حبسه في سجن المخاصمات بإعتبارها أولوية، لا نجد عليها برهانا قاطعا او سلطانا مبينا.. هكذا حرمت البشرية من أعظم فرصها، ولا زالت، عندما حصرت العقل في الاطار الضيق الذي قلّص الانتاجية العلمية بدرجة ملحوظة!! لقد امتلأت التجربة العلمية والتراث المعرفي للبشرية بالدراسات والمصنفات التي تنطلق من اعتبار أن الانسان في البداية يكون غارقا في الاشكالات والشبهات. فإذا أراد الفيلسوف إثبات أصالة الوجود (التي هي من أبده البديهيات) فإنه يغرقنا

ببحر من الإشكالات التي لم نكن لنتصورها ولو عشنا مئات السنين. وكأن هذا الانسان من الطبيعي أن يعيش في البداية شبهة أصالة الماهية ولا بد أن يتحرر منها ومن جميع أدلتها العقيمة!

ان العقل الانساني السليم الذي لا يقيده أي نوع من الهوى، هو الذي سيكون وسيلة لبلوغ جميع المعارف وكشف الحقائق. فالسلامة النابعة من هذه الحرية هي الشرط الوحيد لاصطياد جميع المعارف وبلوغ أعلى مراتب العلم!

وهذا ما يقودنا للسؤال عن الطريق المؤدية الى سلامة العقل، وهل هي موقوفة على الدراسة والتعلم المتعارف والذي نستخدم فيه الكتاب والأستاذ والمطالعة؟

فإذا ثبت هذا سلمنا بوجوب دراسة الكتب الفلسفية ومطالعة الابحاث العقائدية، لأنها ستكون بمنزلة العلة الوحيدة. ونستطيع على ضوء ذلك من الناحية العملية ان نستنتج حكما شرعيا يقضي بوجوب هذه الدراسات على كل من حرم من سلامة في عقله، كما فعل بعض العلماء عندما أكد على ضرورة دراسة الفلسفة باعتبار أن معرفة الدين وفهم نصوصه فهما دقيقا تتوقفان عليها.

أما إذا وصلنا إلى أن سلامة العقل يمكن أن تحصل بطريق آخر أو بعدة طرق اخرى، فلا يمكننا عندئذ أن نستنتج الوجوب الشرعي لتحصيل مثل هذه الدراسات الفلسفية.

وينتقل البحث حينها إلى المعايير الكاشفة عن سلامة العقل. ولعل المعيار الأول هنا هو ما يتعلق بمقدار كشفه عن الحقائق! فعمل العقل ودوره ينحصر في إطار الانتاج والكشف، وعندما يضعف الكشف أو يتوقف،

يقال أن هذا الانسان لا نصيب له منه أو لا عقل له، وخصوصا فيما يتعلق بالحقائق الأساسية والقضايا البديهية، كيوم القيامة أو الكتاب العزيز الذي ورد بشأنه أنه لا ريب فيه.

الاصول الحاكمة على طلب العلم:

العبودية:

ينقسم العلم بأحد الاعتبارات إلى قسمين: قسم يفاض على الانسان بدون اكتساب (وهبي)، وقسم يحصل من خلال التحصيل والسعي (كسبي). وقد لوحظ في هذا التقسيم اعتبار وظيفة الانسان ومسؤوليته، وإلا فإن كل علم يحصل عليه الانسان هو فيض إلهي من الواهب المتعال. فأحيانا تختفي العلل والوسائط التي تتجلى فيها الهبات الإلهية إلى الدرجة التي يصعب على الانسان العادي الشعور بها، وتارة تكون ظاهرة للعيان، كما لو قام أحدهم بتحقيق مطول ومضنٍ، فيخامره شعور بأنه انما وصل الى تلك الحقيقة او هذه المعلومة بفضل سعيه وكده.

فإذا أراد الله تعالى ان يفيض على عبده بالمعرفة والكشف فإنه قد يمرر فيضه هذا عبر الوسائط العادية المتعارفة، أو يجعله لدنيّا كقوله تعالى: وعلّمناه من لدنّا علما. ففي الحالة الأولى يكشف الله تعالى الحقيقة من خلال كتاب أو درس أو مدرس، وفي الحالة الثانية يشعر الانسان وكأنها قذفت في قلبه بدون أي نوع من المقدمات.

وأثناء عبور هذا الفيض وتنزله في عوالم الوجود ومراتبه، أو لنقل، أن الانسان عندما يأخذ من الفيض درجة أو يتناول منه رتبة (بحسب درجته وارتقائه في العوالم) فإنه قد لا يسلم من تصرفات إبليس اللعين وجنوده،

كما لا تسلم الامطار العذبة من ملوحة الارض في ريها لعطش تربتها. ونتيجة ذلك يختلط الحق بالباطل وتحصل الشبهة التي تدعو الى الضلالة. والضلالة اذا اجيبت دعوتها صارت شيطنة ربما لا تترك صاحبها حتى ترديه في العذاب الأليم.

وعليه، لا نستطيع الجزم بأن الحصيلة النهائية للتفكر سوف تكون حقاً أو صوراً مطابقة للواقع كما هو في نفس الأمر. ولهذا فإن السعي بحد ذاته، وإن كان له نوع من الشرافة والعظمة، إلا أنه ليس علةً مؤكدة للوصول إلى الحق والمعرفة.

ان طلب العلم كغيره من الاعمال والمساعي، ينبغي أن يكون خاضعاً لقاعدة العبودية والطاعة. وعلى طالب العلم أن يعرف تكليفه ومسؤوليته الشرعية تجاه العلم، فلا يطلبه لحظ نفسه، أو لأجل مآرب الدنيا، بل امتثالاً للارادة الالهية وتحقيقا للمقاصد السنية.

ان العبودية لله عز وجل هي الأصل الأول الحاكم على العلم. وأي كمال من الكمالات التي ينشدها الانسان ويطلبها، إنما يكون كمالاً حقيقياً في ظل طاعة الله وعبوديته،لأن العبودية هي الاطار الصحيح الذي يعطي للكمالات قيمتها. وكل كمال ناله إنسان خلا قلبه من العبودية لله، لن يكون سوى ضلالة أو استدراج.

وبناءً عليه، يمكن قبول أن الحق عز وجل قد ينهى عن السعي العلمي بالمعنى المتعارف أو ينهانا عن طلب علم ما. واستبعاد هكذا تصور ناشئٌ من عدم إدراك حقيقة العبودية. فقد يكون الحق عز وجل في مقام اختبار عبده باختبار العبودية والطاعة، فينهاه عن السؤال والبحث، لأن العبودية بذاتها أمر مغاير للعلم، فمن الممكن ان يتحقق الانسان بالعبودية التامة دون

ان يعرف الكثير من حقائق هذا العالم. كما هو حال بعض أصناف الملائكة الكروبيين الذين يسبحون الله تعالى ويقدسونه وهم ذاهلون بالكلية عما سواه و لا علم لهم بغير ساحة الوجود المقدس للحق عز وجل. والعبودية ليست بالضرورة بالتحصيل والعمل: فاحيانا تكون بالكف والامتناع: "لا تاكلا من هذه الشجرة". قد ينهانا الله عن معرفة اشياء تتعلق بالاخرة او الانبياء او الجن: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم"، والتزامنا بهذا الامر يكون عين الطاعة والانقياد والسير في طريق العبودية.

وعلى ضوء ما تقدم، تكون قاعدة العبودية وامتثال التكليف منطلقا لتحديد وجوب تعلم هذا العلم او ذاك أو السعي للاطلاع على هذا المجهول أو غيره أو المنع عنهما. فإذا كان هذا العلم يساهم في تحقيق العبودية وأداء التكليف، يصبح تكليفاً شرعياً، وإذا اكتشفنا أنه لا يساهم في تحقيقها، فانه يخرج عن الوجوب وقد يصل إلى درجة الحرمة.

وهكذا، فان طلب العلم تحت عنوان السعي الخارجي ينبغي ان يخضع لبرنامج الشريعة ورسالتها في هداية البشرية.

ولا بأس بالاشارة الى الفارق الجوهري ما بين الطلب المعنوي النفسي والطلب الخارجي العملي.

فعلى مستوى الطلب المعنوي الذي يظهر بصورة الدعاء والمسألة لا يعتبر القول باستحباب طلب العلم المطلق والكشف التام أو وجوبه بعيدا عن الصواب. بيد أن ما يناله هذا الطالب من معرفة أو يعطى من جانب الحق تعالى، وإن كان كمالا بذاته، إلا أنه ينبغي ان يخضع للمعيار الذي يحدد ما هو العلم المقرّب والموصل والمحقق للعبودية. فليس كل كمال، وإن كان حقيقيا، طريقا الى المطلوب؛ بل ما كان سببا لتعميق حالة العبودية والطاعة

ووسيلة لأداء التكليف وتنفيذ البرامج الإلهية. فقد يكون هذا الكشف كمالا حقيقيا لأنسان، ولا يكون كذلك لغيره. وعليه فإن كل ما تنطبق عليه القاعدة المذكورة ينبغي ان يلح الانسان في طلبه، بل يجعله معيارا لصحة سلوكه، ويعتبر عدم الوصول إليه علامة على الطرد أو الإبعاد.

إن المعارف التي لاتؤثر في سير الانسان المعنوي وفي قربه من الله، (والتي قد يكون من مصلحته عدم الاطلاع عليها)، فإنها مما ينبغي الغض عنها والسكوت عن طلبها، كما كان حال نبي الله موسى(ع) عندما رضخ لاعلان الخضر(ع) بانهاء الرحلة العلمية.

وإذا كان المطلق من العلم الذي لا يشوبه شك أو جهل هو المطلب النهائي لكل فطرة صافية، فإن المقيد المحدود منه لا يكون بالضرورة مطلوبا. لأن العلاقة بين المحدود والمطلق ليست علاقة الكميات ببعضها حتى يقال أن العلم المطلق هو جمع كم هائل من المعلومات!. ولهذا قد يكون العلم المحدود أو العلم بأشياء محددة حجابا ومانعا من الوصول إلى ما تصبو إليه الفطرة الإنسانية. وغالبا ما يكون الإنشغال بالمحدود مانعا من الوصول إلى المطلق.

أن أهم تعبير عن ذلك المقام المنيع هو ما ورد بشأن أهل بيت العصمة والطهارة في قولهم عليهم السلام "لو شئنا لعلمنا" رغم امتناعهم بحسب تكليفهم عن الاطلاع على الكثير من الامور التي تجري من حولهم في عالم الطبيعة. هذا مع ما لهم من الاحاطة بعوالم الملكوت والجبروت. فأمير المؤمنين عليه السلام يصرح قائلا أنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض. ذلك لأن العلم بالملكوت خير تام وكمال محض بخلاف الاطلاع على ما وراء الجدران من حرمات الناس و أفعالهم.

وعندما يصل الإنسان الكامل الى مقامه الأسنى، فإنه يكون قد اتصل

بمنبع العلم المطلق مع بقاء حقيقة فقره وعبوديته التي تقضي بأن لا يطلب ما لا ينبغي مما لم يكن مسؤولا عنه. إن القدرة على الاطلاع متحققة لديه، لكنه يغض النظر عبوديةً.

فلو أخذنا على سبيل المثال عالم الاحياء، لكفى الانسان أن يعرف منه القليل ليستدل على عظمة الله وحكمته ولطفه وتدبيره وباقي صفاته، ولم يكن بحاجة الى متابعة كل شيء في أكله وشربه ومنامه وتناسله. وأن احاطة الانسان الكامل المعبر عنها بالإحاطة القيومية التي هي من مقاماته العليا إنما هي من عوالم ما فوق الطبيعة التي تجتمع فيها المتفرقات وهي غير العلم التفصيلي الذي يشترط فيه التوجه الطبيعي. ومن هنا نقدر على تفسير ما ورد عنهم عليهم السلام في بيان ما خفي عنهم أو سؤالهم واستزادتهم.

وهكذا نفهم بعض أسرار رفض رسول الله صلى الله عليه وآله للعرض الذي تقدم به جبرائيل عليه السلام بجعل كل ذهب الارض له، حيث أجابه صلوات الله عليه وآله بأنه أن يجوع يوما ويشبع يوما خير له، لأنه سيدعو ربه عندما يجوع ويشكره عندما يشبع. فالتوجه الى الله تعالى بلسان العبودية ومقام الذلة هو أفضل ما يرجوه أولياء الله وأحباؤه.

من جانبٍ آخر، إن العقل السليم عندما يكون قائدا للمملكة الانسانية في دائرة العبودية فإنه سيكون أفضل وسيلة لنيل جميع المعارف المطلوبة والتي تكون أساسا لكمال الانسان ورفعته. هكذا هو العقل، لا يقود صاحبه الا إلى الكمال الواقعي في ظل المعارف الضرورية.

ويكون الانسان، أثناء سيره في هذا المضار، واعياً تماماً للعلاقة بين سعيه في طلب العلم وعبوديته لله، فيكون عقله حين تفاض عليه آلاف الصور العلمية أثناء عبور مراتب الكمال، متوجها إلى العبودية لله وعبادته.

فيرفض الاشتغال بالكثير منها، ويتخلى عن البعض تفكرا أو احتفاظا. فهذه الواردات العلمية المشغلة للقلب تعد من الفتن الكبرى التي يفتتن بها الإنسان في طريق العبودية. ومثلما أن طلب العلم يكون تارة واجبا عليه، ففي بعض الأحيان ينبغي أن يتغاضى ويتعامى ويهمل من العلم ما لم يكلف به.

ولعل هذا الدور الذي يقوم به العقل هو الأكثر حساسيةً ودقةً وأهمية من استقبال المعارف وفتح أبواب العلم؛ وإن تمايز السالكين الراسخين فيما بينهم لا يعزى الى قدرتهم العلمية في تحصيل المعارف، وانما الى قدرتهم على عدم الاشتغال بما لم يكلَّفوا. والقيام بهذا الدور كما هو حقه أمر في غاية الصعوبة، ففي هذه المرحلة يفاض على الانسان الكثير من الحقائق الشريفة والمعارف النورانية من عوالم الغيب والشهود وأسرار الكون والوجود. وفي لجة هذا البحر المتلاطم ينبغي ان يهتم بما يوصله إلى نور الحَقيقة المطلقة، ولا يتيسر ذلك إلا لمن كان للحق مراقبا وعليه مواظبا.

احلال السلام:

لما أُهبط الانسان إلى هذه الارض كان التحدي الأكبر الذي سيواجهه هو عبور إمتحانات العداوات التي ستنشأ من التزاحم الموجود فيها: "إهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو".

فمسؤولية الانسان أن ينجو من هذه العداوة، التي ستتجلى بصورة الحروب والمعارك، أو بصورة الصراعات الخفية بين الاخ وأخيه، أو الزوج وزوجته. وإن أرقى صورة للنجاة من هذه العداوة هو عند تحقيق السلام المطلق مع عباد الله الصالحين، الذي يكون سبباً لنيل كل الكمالات. ولعلنا نستطيع ان نقول إن أحدى أهم غايات جميع العبادات في الدين الاسلامي هو تحقيق هذا الأمر، كما يحصل للمصلي عند رجوعه الى عالم الطبيعة

بعد عروجه إلى مقام القرب فيسلم على عباد الله الصالحين ويختم بالسلام على موجودات هذا العالم.

وهذه الغاية تفرض على الانسان أن يكون في سعي دائم من أجل احلال السلام وافشائه في كل العالم، حتى لو تتطلب ذلك ان يبذل نفسه ويقاتل بأشد أنواع القتال! ولأن المسؤولية الأساسية الملقاة على عاتق الانسان في هذه الدنيا ينبغي أن تكون محور جميع تحركاته، فتعطى الأولوية على جميع ما سواها من أعمال وتحركات، نستنتج ان سعي الانسان لتحصيل العلم و المعرفة ينبغي أن يصب في هذه القناة، وفي تحمل مسؤولية إحلال السلام على الارض. وهكذا يرسم العبد المخلص برنامج تحصيله ودراساته متوجها إلى الهدف، فيرفض كل ما يعمّق الخلاف والاختلاف بين البشر ويبني منهج بحثه على أساس إرساء دعائم السلام التام الشامل.

فعلى المستوى الفردي، على الانسان تحقيق السلام المطلق مع عباد الله الصالحين، وعلى الصعيد الإجتماعي عليه أن يسعى ليعم السلام آفاق العالم بدءا من أقرب الناس إليه؛ وينضم الى قافلة عباد الله الصالحين لتحقيق هذا الهدف المقدس الذي سيؤدي إلى التحول الجوهري على الارض وعودة البشر الى جنة الخلد.

ولا شك بأن السلام الواقعي على الارض لا يتحقق إلا بوجود حكومة قوية عادلة، فتكون الحكومة وسيلة لا يمكن تصور تحقق الهدف بدونها. ولو افترضنا ان الناس قادرون على العيش بسلام، لا يعتدي أحد على أحد دون حكومة، لانتفت الحاجة اليها. لكن هذا الفرض بعيد كل البعد عن الطبيعة البشرية والوقائع المجربة..

ولأن السلام ينبغي ان يكون شاملا، فهذه الحكومة ينبغي أن تكون

حكومة عالمية. فمع بقاء الحكومات المتعددة لن ينتفي احتمال الصراع والنزاع. ومرد ذلك بالدرجة الاولى الى التزاحم الحتمي وتعدد الأهواء والأطروحات. وقد ثبت في محله أيضا أن تحقق العدالة بمعناها الشمولي لا يمكن إلا في ظل تطبيق الأحكام الإلهية، كونها الضامن للحد من الأهواء التي هي منشأ كل فساد. ولكي تكون الحكومة إلهية، لا بد أن يكون الحاكم إنسانا ربانيا يحكم بما أنزل الله تعالى ويرتبط ارتباطا عميقا برسالته وبرامجه التي تهدف إلى تحقق السلام الشامل. فنخلص إلى أن الدخول في مشروع الولي الرباني وبرنامجه يعدّ ضرورة لتحقيق الحكومة، التي هي الوسيلة الوحيدة لتحقق السلام الواقعي.

وهكذا نفهم سر التأكيد في ثقافتنا على السلام في زيارتنا المتكررة لأئمتنا المعصومين عليهم السلام، كل ذلك من أجل تعميق الارتباط بهم وبمشروعهم الإلهي. فالمعنى المقصود بالسلام والذي يتبادر الى الذهن اولا هو اللاحرب. لذلك نقول في الزيارة: سلمٌ لمن سالمكم وحربٌ لمن حاربكم، للتأكيد على السلام المقابل للحرب وللمواجهة مع الولي.

وبناء على ما تقدم يصبح من الضروري أن نبحث عن سبل خدمة هذا الامام، وكيفية الدخول والمشاركة في مشروعه.

ومما يؤسف له أن يكون من عاش في كنف هذه الثقافة غافلا عن هذا المبدأ الاصيل. فيكتفي ببعده العقائدي دون أن يسري ذلك بشكله المطلوب في تفاصيل حياته: فلا يبحث عن مشروع إمامه وبرنامجه الكبير الذي كانت تفاصيل الشريعة مفرداته. وهكذا تخلو المعاهد العلمية من الدراسات العميقة والجادة والأبحاث المتضافرة التي تراكم التجارب وتتدخل في التركيبة الثقافية للمنتمي.

فما هي أولويات الامام (ع)؟ وما هو موقفه من الفرق والتيارات والاحداث والتحديات المختلفة؟..

وعندما يغيب عن بالنا مثل هذه الاسئلة والبحث عن أجوبتها، نكون قد ابتعدنا عن المشروع الكبير والمسؤولية الاساسية. وعندها ستكون جميع تحركاتنا، سواء على المستوى الفردي ام الاجتماعي، فاقدة للوجهة الصحيحة.

عندما ننظر الى الانجازات العلمية عبر تاريخ عصر الغيبة الكبرى، نجد أن الانجازات الفقهية هي التي عبّرت أكثر من غيرها عن شدة الارتباط بالأئمة الاطهار (عليهم السلام)؛ وذلك لأن مسيرة الفقه بنيت على أساس الإيمان بأنهم عليهم السلام المرجعية الأساسية بعد كتاب الله تعالى. فقد حرص الفقهاء على مراجعة كل ما يمت لأهل البيت بصلة واعتنوا أشد الاعتناء بسيرتهم وأقوالهم. ورغم هذا التدقيق وهذه العناية وتلك الروح العلمية الراقية، لم يدّعِ أي من هؤلاء العظماء أنه وصل إلى الأحكام الواقعية. وهذا ما تعكسه الاختلافات الظاهرة في فتاواهم أعلى الله كلمتهم.

وبالرغم من ذلك، كان تقليدهم عبر العصور مبرئا لذمة المكلفين: كل ذلك، لأن الفقيه قبل أن يمثل المرجعية العلمية، إنما يمثل بالنسبة لمقلديه نوعا من الارتباط بمشروع اهل البيت(ع).

ان هذه الاختلافات الجزئية التفصيلية لاتؤثر على حياتنا، وليست الاساس والعمدة في تطوير أوضاع الامة وازدهارها، بدليل ان الفقهاء انفسهم يقولون انه في حال لم يكن من فقيه بين الناس، لجاز أن نعمل برسالة الشيخ الانصاري أو الشيخ المفيد قدس سرهما.

وعليه فإن الحاجة تتركز بالدرجة الأولى إلى وجود الفقيه أكثر من فتاواه. والمجتمع الإسلامي لا يستغني عن الفقيه الذي يقود سفينته في بحر التحديات المتلاطم.

وعليه لو أردنا أن نحدد حاجات الأمة على أساس تحديات العصر ومتطلباته الحضارية بما يمليه الصراع المفروض عليها، لما كان الكثير من الاجتهاد وثماره في أبواب الفقه والأحكام ضروريا، مع وجود التراث الفقهي المتراكم والغني في أكثر مسائل الابتلاء، ولكن الحاجة ماسة فيما يرتبط ببعض الموضوعات المستجدة وهي ليست بالكثير. وإلى ما هو أهم من كل ذلك؛ ألا وهو قيادة الفقه والشريعة لحياة الأمة والمجتمع. وبعبارة أخرى إن المجتمع الإسلامي ليس بحاجة إلى الكثير مما يبذل من جهود علمية مضنية في أغلب أبواب الفقه والشريعة، وإنما يحتاج إلى البرامج التي ينبغي أن تطرحها قيادته الرشيدة لتطبيق الشريعة في مختلف مجالات الحياة. ولم يعد مقبولا أن ينحصر عمل الفقيه في إطار استنباط الفتاوى، لأن المجتمع يطالب بتطبيق برامج الشريعة في حياته وفي قضاياه الأساسية.

أولئك الذين لم يتعرفوا إلى الشريعة كبرنامج لقيادة الحياة وإدارة المجتمع، يصعب عليهم تصور هذه المقولة، لأن أحكام الاسلام بنظرهم ثابتة (ستاتيك) وليست في مجموعها وروحها متحركة (ديناميك). ولعلنا نقول حينها أنه لولا ضرورة الرجوع إلى الحي من الفقهاء (مع شرط الأعلمية)، لانتفت الحاجة الى استنطاق النصوص الدينية وفق الآلية الإجتهادية العريقة.

فقبل البحث عن حكم الموضوع الفلاني وأمثاله ينبغي البحث عن المشروع التغييري الإصلاحي لإمام الزمان وتحديد أولوياته ومراحله لمعرفة ما وصل

إليه، ومن ثم الانضواء تحته لاستكمال ما انجز وما ينبغي ان ينجز.

هكذا هي الشريعة في روحها: مشروع وبرنامج له أهداف وغايات ومراحل ومقاطع ينبغي أن تسير بالمجتمع نحو الهدف النهائي، الذي سيتحقق على يد منجي البشرية وقائد العدل. وإن أية حركة علمية أو جهد معرفي لا يأخذ بالحسبان هذا الامر، لن يكون هاديا إلى المطلوب وسيبعد الطريق، وإن كان يبحث في أرقى القضايا وأعلاها شأنا.

وعلى ضوء هذه النظرية ينبغي أن تصب نتائج الحركة العلمية في تغذية المشروع الكبير ورفده سواء في التعليم أو التحقيق أو أي شيء آخر. وهنا يجتمع العلم مع العقل ويكون تحت لوائه فيصبح ممدوحا بحق، كما هو مستفاد من مجموع الروايات والنصوص الدينية الشريفه.

من المهم أن نقوم بدراسة وتحليل ثمار الحركة العلمية التي امتدت عبر هذه القرون على أساس الميزان المذكور دون الاستغراق في نفس الثمار العلمية. ولا شك بأن الكثير مما كتب أو قيل في العلوم المختلفة يتمتع بالحسن والقيمة العلمية التي هي الحق، إلا أن هذا شيء، وما نصبو إليه شيء آخر مختلف تماما. فتارة ننظر إلى التراث العلمي ونقيّمه على أساس الموازين العلمية المتعارفة كقواعد المنطق وأصول الفقه ونحكم بالصحة أو الدقة على مسائله وآثاره، وتارة نحاول أن نتعرف على آثار هذه الحركة العلمية في الحياة الاجتماعية للمسلمين على ضوء التحديات التي عصفت بهم عبر تاريخهم.

وعليه فإننا وفق النظرة الأولى سنعتبر تعددية المرجعيات الدينية علامة نضج وخير وحيوية في الحوزات العلمية لأن تعدد الآراء العلمية يغني التراث، لكن النظرة الثانية سترى أن هذه التعددية كانت من المآزق

الكبرى التي وقع فيها مجتمعنا وتسببت بتشتت الجهود وانشغال الناس في صراعات وخلافات تنسيهم دورهم المصيري في الصراع الكبير والمتطلبات الحضارية المنشودة.

وفق النظرة الأولى سنعتبر أن الكتابات التي تعد بالآلاف في مجال الاختلافات المذهبية والكلامية دليلا على الحرية الفكرية التي اسهمت في التطور الفكري العقائدي للمسلمين، أما النظرية الثانية فإنها ستدين معظم هذه الجهود التي بذلت في هذا المجال باعتبارها أساس النزاعات التي أدت الى تفرق الأمة الاسلامية وفقدانها لدورها الرسالي في حياة البشرية.

وفق النظرة الأولى تكون الوفرة في الأصدارات الفكرية وكثرتها حاكية عن رواج البحث العلمي وإقبال المسلمين على العلم، أما النظرة الثانية فأنها تنظر بعين الأسى لما يمكن أن يصيب الباحثين والقراء من حيرة وضياع عند البحث عن الحقيقة وسط لجة الكتابات والمصنفات التي لا تعد ولا تحصى!!

الرجوع الى الولي الكامل أولى الأوليات:

إن أفضل تجل للعبودية الخالصة في حياتنا اليومية هو تولي أولياء الله تعالى واتّباعهم. وسر ذلك أن الله سبحانه قد أودع أولياءه برنامج شريعته يقودون الناس على أساسها لتحقيق أهدافها الكبرى ومقاصدها السامية. فالشريعة التي لا تتحرك لن تكون خلاصا للناس. وما لم تنزل الشريعة في قالب البرنامج والمشروع فإنها تكون فاقدة للحراك. وبدون القيادة التي تفهم الشريعة وتعرف روحها لا يمكن الحديث عن أي برنامج أو مشروع.

إن الله تعالى لم ينزل شريعته إلا من أجل ان تكون منهاجا لإنقاذ البشر

وهدايتهم وتكميل مجتمعاتهم؛ بدءا من المجتمع الإسلامي الذي يتبنى المشروع، ليكون انموذجا تحتذي به المجتمعات الانسانية الأخرى.

وهذا ما نستدل عليه في جزئيات الشريعة من خلال تقدم حق الناس على ما عبرّ عنه بحق الله تعالى، أو أولوية المجتمع على الفرد عند التزاحم أو تقديم جميع الأحكام ذات البعد الإجتماعي على أحكام الفرد. كل ذلك لأن قضايا المجتمع تصب في أخطر قضايا الانسان وأشدها تأثيرا على مصيره، ألا وهي قضية الحكومة. ولهذا كانت الحكومة هي الفلسفة العملية لكل الفقه بكل أبعاده، كما قال الإمام الخميني قدس سره.

وهكذا، على طالب العلم أن يستوعب المشروع الكلي قبل الغرق في التفاصيل والفروع العلمية، ليجعل كل جهوده العلمية تصب في هذا المشروع. فالبرامج الدراسية ينبغي أن تعد من أجل تخريج العلماء الذي يساهمون من خلال تعليمهم واستنباطاتهم وتحقيقاتهم في بناء صرح الحكومة التي يقودها ولي الله والعمل على تطبيق برامجه. وكم نحن بحاجة الى وضوح هذا المشروع في أبعاده وأركانه الأساسية وتفاصيله ليحدد كل منّا ما يمكن أن يقدمه حتى تحقيق الهدف النهائي.

إن النظرة الثانية تقول أن الجهود العلمية والتعليمية تشبه التيار الذي يجري في جسم الأمة فيحركها نحو هدف محدد. وعندما تكون هذه الجهود مشتتة ومتضاربة، فإن الأمة لن تقدر على تشكيل تيار قوي هادر يقتلع من أمامه أكوام العوائق التي تراكمت على مر القرون.

وعلى هذا الأساس أيضا ينبغي أن تتحول الجهود العلمية إلى حركة تراكمية متضافرة بحيث يبنى كل جهد على أساس ما انتهى إليه غيره، ونعتبر التكرار من المحرمات ونعده عبثا!

وعندما يترسخ هذا المعيار في المجامع العلمية، فإنه سيعيد تشكيل هذا التراث وتصفيته من كل ما علق به من إضافات وحواش، ويعمّر بما بقي ذلك الصرح العلمي الذي سيضخ تيارا ثقافيا هادرا في المجتمع. وهكذا يحملنا هذا المعيار الأصيل على السعي لتركيب أحجار ولبنات النظرية الإسلامية والمشروع الإلهي على الصعيد العلمي؛ فتتضح العلاقة بين القضايا والمسائل المختلفة ويفسر بعضها بعضا، ليحول دون الكثير من التشتت والضياع.

فهذا المشروع هو الروح التي تجمع أجزاء الجسد الواحد أولا، ثم تحركه، ليؤدي دوره المصيري في حياة البشرية.

هكذا كان العلم عند الله وعلى هذا الأساس مدح وبدون ذلك يصبح مذموما، لأنه من أعظم أسباب التفرق والإختلاف.

لن ينفصل الواقع البشري يوما عن الحكومة ولن تكون الحكومة بمعزل عن مصيره. وستبقى الحكومات المؤثر الأول في طرق عيش الناس وتوجهاتهم وتقاليدهم وقيمهم. وسيحكم العالم على نفسه بالعزلة يوما بعد يوم كلما ابتعد عن أهم القضايا التي تمس حياة الناس. ومع تمركز الحكومات في برامجها وتأثيراتها التي تضاعفت بما لا يمكن تصوره. قياسا مع حكومات القرون الوسطى والعباسية والأموية والعثمانية . فإن العالم الذي يبتعد عن تحمل مسؤوليته السياسية الإجتماعية يكون قد حكم على نفسه بالإعدام!

ومن قرأ القرآن الكريم جيداً، وجال في آياته،من بدايته إلى نهايته، يدرك أن قضية الولاية والتولي من أهم القضايا المطروحة فيه. وحتى لو لم يتم استخدام نفس كلمة "الولاية"، فالحديث عن الظلم والظالمين يستوعب حيزا واسعا في القرآن الكريم. حتى لنرى أن أشد ما يعاقب الله تعالى عليه

هو كل ما يتعلق بالظلم (الذي هو الاعتداء على الناس وتجاوز حقوقهم). لهذا كان الانسان مسؤولا قبل أي شيء آخر عن الموقف من الظلم والظَلمة؛ والذي لا يمكن أن يتحدد إلا بناء على تواجده ضمن مشروع الولي وأنصاره.

إن جميع عبادات الإنسان وأعماله الصالحة لا يمكن أن تعطي ثمارها المرجوة بمعزل عن الانتماء الصحيح وتحمل المسؤوليات الشرعية في مجال الحياة الاجتماعية والسياسية.

ونقرأ في الزيارة الجامعة: "من أراد الله بدأ بكم" و "بولايتكم علمنا الله معالم ديننا".

فالمطلوب أن تتجه الجهود العلمية ضمن دائرة الولاية وساحة عملها نحو أهدافها وتطلعاتها. ومن المتوقع أن يؤثر هذا الامر بشكل جوهري على مناهج البحث والتحقيق والنتائج العلمية، كما كانت الاوضاع الاجتماعية والسياسية المؤثر الاكبر - على سبيل المثال - في تشكل الفلسفة اليونانية على يد أرسطو في مواجهته لتيار السفسطة الذي اعتمد طريقة المغالطات.

وبسبب ذلك تشكلت الفلسفة وشيد بناؤها على أساس رد المغالطات والتعامل مع الذهنية المستشكلة والمعقدة والتي تاهت في دهاليز التحليلات العبثية. وبتنا نجد الفيلسوف يدور في بحثه حول اكتشاف كل ما يمكن أن يتصور أو لا يتصور من اشكالات وشبهات للرد عليها وتفنيدها، مما جعل الحركة الفلسفية مستغرقة في الأبحاث التي لا تنتج معرفة تساهم في تكامل الإنسان الواقعي.

ولو تعاملنا في جميع الأبحاث العلمية على أساس السعي لاكتشاف ذلك المشروع الكبير وبنائه، لتغيرت مسيرة العلم واتسعت آفاقه وتفتحت براعمه بصورة مذهلة.

إن جعل قضية العدالة الاجتماعية والقضاء على الظلم محورا للنشاط العلمي سيوجه الجميع نحو القضية الأهم: وهي قضية الإمامة. وستتشكل على أساس ذلك منهجية علمية جديدة لطرح هذا الموضوع المصيري بمعزل عن الصراعات المذهبية التي أكل عليها الدهر وشرب.

وحاصل الكلام، أن ضرورة وجود إمام عادل تعد من المبادئ البديهية للفطرة الاجتماعية في حياة الانسان. وعندما تبتعد البشرية عن هذا المبدأ البديهي ستتيه وتكثر عليها التكاليف وتتشعب، لأنها اختارت الطريق الأصعب، وظنت أنها تستطيع الاهتداء بمعزل عن السماء. ولو علم الناس أن في طاعتهم لإمامهم العادل الرقي العلمي، لما اختار كلٌّ طريقه وسلك سبيله، ولما كنا نرى اليوم كل هذا التشعب في العلوم والمعارف البشرية!

العلم والتوبة:

ان اكثر ما يتبادر الى أذهاننا حين نذكر طلب العلم هو السعي العملي، فلا يخطر ببالنا الدعاء لطلبه من الله تعالى: **وقل رب زدني علما**؛ ومن المهم الالتفات إلى الفارق بين المسؤولية الالهية والمسؤولية الانسانية في هذا المجال. فالغفلة عن المسؤولية الالهية، والتي تنشأ من الغفلة عن الحضور الحقيقي للعليم المطلق سبحانه وتعالى في هذا الوجود، هي التي تلبس علينا الامور، فنغفل عن أنه من الممكن أن يكون هناك الكثير من المعارف اللازمة والضرورية للانسان تعطى له من دون كسب، أو أنه لا يتحمل مسؤولية تحصيلها من الناحية العملية المتعارفة، وقد ضمن الله لنا ذلك كما ضمن لنا رزقنا في الدنيا، لأنها من مقومات الانسانية وأركان الحجة الإلهية، مثلما أن الرزق من مقومات الحياة الدنيا والبقاء فيها.

ان الحديث الشريف " ليس العلم بكثرة التعلم وإنما هو نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء" يشير إلى هذه الحقيقة؛ وقول الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن المعرفة صنع من؟: هي صنع الله (أصول الكافي كتاب الحجة)، يدل على هذا المطلب. كذلك قوله تعالى: **واتقوا الله ويعلمكم الله.** وهذا ما نعبّر عنه بالمسؤولية الالهية في هذا العالم، ونقول أنه تعالى المفيض على نحو الاطلاق لكل كمال ولكل خير ومنه ولا شك العلم والتعليم. وبيانه:

ان جميع المسائل الاعتقادية التي تدخل في عمق الارتباط بالله تعالى ـ وهي القضية الأهم ـ متاحة وميسرة لكل إنسان أيا كان وفي أية ظروف وجد. ولو عمل الانسان بمقتضى فطرته الأولى التي تنهاه عن الاعتداء على أخيه الانسان بالقتل والسرقة وغيرهما، فإنه سيكون لائقا للاهتداء الى تفاصيل الفطرة الاخرى: التي هي عبارة عن الأحكام التفصيلية في مختلف المجالات. وإذا عمل بمقتضى ما اهتدى إليه في المرحلة الثانية فإن الله سيهديه إلى ما هو أعلى. هكذا هي مسيرة الإنسان التكاملية: إذا عمل بما علم ولو كان قليلا فإنه سيزداد علما. حتى إذا عمل بما علم مجددا زاد علمه حتى يبلغ أعلى درجات العلم!

وفي قوله تعالى: "لا ينال عهدي الظالمين" إشارة إلى هذا الأمر. فالعهد المذكور هو رسالة السماء (بحسب أحد أهم معانيه). مما يعني أن الظلم في أية درجة من درجاته يكون مانعا من وصول هذه المعرفة بحسب درجاتها أيضا. فمع وجود مرتبة من الظلم يحرم الظالم من درجة من المعرفة.

فايصال المعرفة والعهد يتحقق دوما من جانب الله تعالى. وعلى الانسان أن يجتنب الظلم بكل أشكاله فيما لو أراد أن ينال العلم الحقيقي. وإنما يكون الإنسان مسؤولا عن التعلم وعليه أن يسعى ويتحرك طلبا للعلم، ولو

إلى الصين، من أجل الإبتعاد عن الظلم والتكفير عنه بذلّ التعلم والصبر عليه. وهذا هو أحد معاني التوبة كما في قوله تعالى: **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه.**

وهكذا نفهم لماذا بينت الروايات الكثيرة العلاقة بين طلب العلم والمغفرة الإلهية كما في الحديث المروي عن النبي صلوات الله عليه وآله: "من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وانه يستغفر لطالب العلم من في السماوات والأرض حتى الحوت في البحر".

فمن أفضل أعمال التوبة طلب العلم. وهذا السعي والطلب هو تكفير عن الذنب واستغفار يجعل الانسان لائقا للعلم الحقيقي.

ولقد لفت أنظارنا كثيرا هذا التأكيد الكبير على طلب العلم دون تعيين متعلقه وما ينبغي ان يطلب فيه. ووجدنا أن القضية ليست في النتيجة العلمية المباشرة، بل فيما يحققه الانسان من استعداد معنوي ولياقة روحية لنيل العهد الإلهي والنور الرحماني.

اثر طلب العلم في خط الولاية على التوبة:

قد تبين لنا ان الانسان أعطي الأداة والوسيلة التي تمكنه من اصطياد جميع المعارف. ومسؤوليته تكمن في الحفاظ على هذه الوسيلة وصيانتها، وذلك بالابتعاد عن الظلم بكل أشكاله. فمن لم يظلم نال شرف التعليم الإلهي ومن واجه الظلم نال مرتبة التعليم اللدني: **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.**

ليست التوبة على الذين ظلموا مجرد قول استغفر الله، بل إنها حركة للتكفير عما سبق ودفع ما سيأتي واجتناب الحاصل. ولا يتيسر ذلك إلا لمن

قام مجاهدا في سبيل الله من أجل مواجهة الظلم بكل أشكاله. وخط الولاية وقيادة الولي العادل هي التي تنظم حركة المواجهة وتجعلها فاعلة منتجة. فالولاية هي صراط الله عز وجل وسبيله، وهي ملاذ التائبين وكهفهم. وهكذا فإن القليل من العمل، او القليل من طلب العلم من إنسان يوالي حقاً يكون سببا لنيل المغفرة والهداية، بينما الكثير من العمل والكثير من السعي في طلب العلم مع عدم الموالاة يكون عقيما.

وقوله تعالى: **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** يدلنا على العلاقة بين التوبة والخروج من الظلم وضرورة الالتحاق بركب التائبين الذين يريدون الخروج من الظلم بعد معرفة أسبابه.

ولقد منّ الله تعالى علينا بالعيش في عصر تصدى فيه الفقيه الجامع للشرائط لشؤون المجتمع ولا زال على طريق تثبيت العلاقة بين الشريعة والأمة وبلورة أدوار الناس من خلال المؤسسات التي ستنهض في المستقبل القريب بإذن الله بدور توجيه الجهود العلمية على أساس المشروع الكبير. وإلى حين تحقق هذا الهدف الكبير يحتاج طلاب العلم إلى بذل الجهد الكافي لمعرفة الأولويات في التحقيق والبحث والتحصيل للاضطلاع بالدور المصيري الملقى على عاتقهم.

وظائف التعليم الاساسية:

من بين المسائل التي تطالعنا في النصوص الدينية وتطرح تحت عنوان العلم مسألة التعليم.حيث يشار إلى أهمية وعظمة التعليم، إما من خلال التعبير المباشر، وإما من خلال مدح العلماء وتعظيمهم ورفع درجاتهم والإعلاء من شأنهم. فقد أولى الاسلام أهمية فائقة للتعليم، ورفع العلماء

إلى أعلى الدرجات، التي قد لا تضاهيها درجة الشهداء، كما روي في حديث عن رسول الله (ص) أنه قال: "مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء". وهو المعنى الذي أشار إليه الإمام الخميني قدس الله سره بقوله: "أن الأقلام هي التي تصنع الشهداء".

في عملية التعليم يوجد عدة وظائف مهمة ينبغي الالتفات إليها:

1. من أهم وظائف التعليم والعلماء تنبيه الناس وتذكيرهم بالقضايا الاساسية في الحياة، من قبيل: المسائل الاعتقادية، والمعنوية، والعملية.

ان مسألة التذكير لا تعني بالضرورة اعطاء العلم، أو إضافة معلومات جديدة. بل المعنى المتبادر للتذكير هو تكرار ما نعلمه. ولهذا نجد ان للتذكير أهمية خاصة في عمل العلماء.

وقد يتصور أن وظيفة العالم تنحصر في نقل المعارف الجديدة للآخرين. ولكن في الواقع، أهم دور للعالم هو التذكير، الذي ينشأ منه التنبيه، والتبشير.

2. للعالم ايضا وظيفة كبيرة جداً على المستوى الجهادي،أو في قضية المواجهة والدفاع، وصيانة المجتمع من هجمات الشياطين، سواء كانوا شياطين الجن او الانس.

ورد في الحديث الشريف: "علماء أمتي يقفون على الثغر الذي يلي إبليس يدفعون عن أيتام آل محمد." العلماء يقفون على الثغور، لكنها ثغور من نوع خاص. هي الثغور التي تلي إبليس وجنوده وشياطينه. ولا شك بأن مكائد الشياطين تتمثل في حياتنا بما يقوم به شياطين الانس، فهؤلاء يترجمون مؤامرات ومخططات شياطين الجن. من هنا، فإن وظيفة العالم أن يتعرف،

ويتابع بدقة هذه المكائد التي تظهر في واقعه بصورة الشبهات والشكوك والتسويلات والوساوس المختلفة، التي تكون أحيانا بصورة العقائد، وأحيانا بصورة الدعوة العملية. فبعضها يدعو الانسان إلى الكفر والالحاد بصورة مباشرة، وبعضها يدعو إلى الفسق والفجور والتحلل السلوكي والعملي، والذي يؤدي في النهاية الى الكفر بالله وآياته.

اما كيف تتم عملية المواجهة؟ فهذا بحث آخر، يرتبط بأصول الحكمة العملية وينبع من القدرة على تشخيص الأولويات والمصالح الاجتماعية والمقاصد الكلية والواقع ومقتضيات الزمان والمكان، حيث تجتمع كل هذه لتحدد طبيعة المواجهة، التي قد تكون من خلال التعليم المباشر،أو نشر الكتب،أو حتى بعدم الاعتناء بهذه الوساوس.

3. هناك وظيفة أخرى لا تقل أهميةً عن ما سبق، وربما لها الأولوية المطلقة، وهي الوحدة الاجتماعية السياسية للأمة، التي تعدّ من أهم وظائف علماء الدين. ومنها يجب أن تنبثق الخطوط العامة لعملية نشر المعارف والعلوم وبرامج التعليم.

المجتمع يتوحد عندما تتوحد أفكاره وثقافته، مهما كانت هذه الثقافة ضحلة ومنحرفة. ولا شك بأن وحدة المجتمع التي تعد من أهم مقومات وعناصر قوته ستنتج على مر الأيام حركة فكرية بنّاءة تمده بالقوة العلمية وتغذي ثقافته ولو على مستوى الصراع مع المجتمعات الأخرى. وهنا يؤدي العلماء الدور الأبرز اذا استطاعوا أن يزودوا المجتمع بثقافة تؤسس لوحدته وتحافظ على انسجامه حتى في أعتى المواجهات الفكرية، ومن خلال تأمين المناخ للنقد الذاتي والتبادل العلمي الداخلي.

4. ومن الوظائف الكبرى للعلماء مقارعة الظالمين المتمثلين بناهبي

الثروات في الداخل والخارج، الذين يثبّتون أركان الفقر في المجتمع، كما جاء في قول أمير المؤمنين عليه السلام: "ولولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم إذن لألقيت حبلها على غاربها.."

ونلاحظ أن هذه الوظائف الأربع للعلماء من الممكن أن تتحقق دونما حاجة الى زيادة المعلومات والانتاج العلمي.

فنفس القضايا الفطرية الموجودة عند الناس، كفيلة بأن تكون أرضية خصبة للموعظة والانتباه واليقظة. وعلى صعيد مواجهة الشياطين، إذا استطاع العالم، أن يؤكد على القضايا والقيم الرئيسية الموجودة في المجتمع فإنه يحبط أية مؤامرة ويرد أي غزو ثقافي.

ولذلك فان دور العلماء الرئيسي، الكامن وراء هذه الادوار أو الوظائف الأربع: هو الحفاظ على الوسائل والأدوات التي توصل الانسان بالحقائق المطلوبة والضرورية. وهذه الوسائل تتمثل بالدرجة الأساسية في العقل والفطرة، وايقاظ هذه الطاقات الكامنة واحيائها، وليس بالضرورة في الإنتاج العلمي والمعلوماتي أو كشف الاسرار والحقائق الخفية.

ومن هنا، ينبغي أن تتركز الجهود العلمية، والعملية، والخطط الثقافية المختلفة في هذين الامرين، لأن ما يبعث الانسان على الغفلة والانحراف والسقوط في مكائد الأعداء وعلى إيجاد التفرقة والتفرق هو ضعف عقله وخمود فطرته وتشوهها.

ان الخطر الجدّي والواقعي على الانسان والمجتمع من أية مؤامرة أو مكيدة إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى تهديد الفطرة أو العقل. فالانسان لن يضل إذا طرحنا أمامه أفكارا لا يتقبلها العقل، او إذا اخبرناه

بأشياء لا تنسجم مع فطرته. لهذا نجد أن الماركسية عندما تغلغلت في بعض المجتمعات الإسلامية ووجدت لنفسها من يؤيدها في أوساط الشباب والمثقفين، إنما تمكنت من ذلك (بالدرجة الأولى والأساسية) بسبب معاداتها للغرب المستعمر والأمبريالي المهيمن؛ وليس، كما يُزعم، لقوة أطروحتها الفكرية التي كان مؤيدوها يجدون صعوبة بالغة في فهمها. إن معاداة الاستعمار والهيمنة من لوازم الفطرة الصافية التي استطاعت الماركسية أن تركب أمواجها لفترة من الزمن، فحرفت معها العقول وأضاعت الكثير من الجهود الثورية التي كان من الممكن أن تتقدم ببلادنا وشعوبنا في أحلك الظروف والحقب الزمانية.

ولم تكن معاداة أمريكا في المرحلة الأولى بسبب ما تحمله من قيم ومفاهيم على مستوى الحكم والحرية والديمقراطية ودولة المؤسسات، بل لأنها ورثت الاستعمار القديم (البريطاني والفرنسي) فورثت معه العداء. ولما كان الاتحاد السوفياتي العدو المباشر لأمريكا، اتجهت فئات الثوار والمعارضين في هذه المجتمعات الاسلامية وغيرها نحو الشرق وقبلت معه منظومته الفكرية التي تحمل في ثناياها مبادئ ترفضها حتى تلك الفئات الثائرة وتدعو الى نبذها. كل ذلك من أجل التأكيد على موقف العداء مع أمريكا. وبمجرد أن انهار الاتحاد السوفياتي انهارت معه الشيوعية والماركسية. فأين هي الاطروحة الشاملة والأيدولوجية القوية!! انهار الاتحاد السوفياتي على الصعيد السياسي ولم يكن من حاجة إلى مواجهة ثقافية أو فكرية للقضاء عليه!! لأن الاتباع والمؤيدين إنما ينظرون إلى الاطروحة الاجتماعية والتجربة السياسية والإقتصادية والمواقف الكبرى قبل أي شيء.

وهذا ما يستدعي إعادة النظر في الأطروحات التي ينبغي مواجهتها.

ومن جانب آخر، نلاحظ أن حضور الأطروحات الثقافية للغرب أكثر تأثيرا من الأطروحة الماركسية. فهي أقرب الى الفطرة من خصمها الماركسي.

هذا، ومن المعروف أن الغرب يختبئ وراء:

الحرية الفردية التي تدعو إلى التمتع بالطبيعة وثرواتها ومواردها بشكل لا محدود.

والحرية السياسية التي تقول أن للإنسان حق تقرير مصيره بيده، وما يرتبط بها من النظام الديمقراطي في الحكم والتعبير، الذي يجعل عادة نقيضاً للنظام الدكتاتوري والشمولي.

وهي مبادئ نجد أصولها في الدين الإسلامي، الذي يريد للإنسان أن يصل إلى أعلى درجات الحرية والانعتاق من القيود التي تكبله والأغلال التي تعيق وصوله الى أعلى اللذات المادية والمعنوية، والتحرر من أسر الطواغيت وسيطرتهم.

فالتحدي الأكبر اليوم يكمن في القدرة على التعبير عن هذه الحاجات الفطرية أولا، وتقديم الأنموذج لهذه الحاجات والتجربة العملية الخالية من النفاق والاستغلال ثانيا. وستبقى جميع الأطروحات الفكرية والأبحاث المعنوية ذات تأثير محدود على حياة البشر ما لم تنبع من المشروع أو الاطروحة التي تلبي تلك الحاجات الأساسية.

تأثير التراكم الثقافي داخل المجتمع على المعرفة الضرورية:

لا تخلو أية قضية بحكم العقل من أن تكون إما ضرورية أو ممكنة أو ممتنعة.

وقد برهن العقل على حضوره القوي في المباحث الفلسفية والعقلية في الحكم على القضايا المختلفة. وذلك بعد أن تم تثبيت قواعده وقوانينه (كما حصل في علم المنطق). وبهذا الطريقة أصبح بالإمكان اجتناب الكثير من المغالطات والشبهات. بيد أن هذا النصر الذي حققه العقل في مضمار البحث العلمي، لم ينسحب إلى العديد من المجالات في الحياة الانسانية. كما نلاحظ عند مناقشة ما هو ضروري أو لازم للتعليم والنشر في أوساط المجتمع. فهنا نجد السلائق والأذواق الخاصة التي تستند في معظم الأحيان إلى تجارب محدودة في سعتها وامتدادها، بحيث يصعب الوصول إلى ضوابط ومعايير مفيدة في هذا المجال.

فبالإضافة إلى ضرورة إحياء الفطرة والعقل وصيانتهما وفتح المجال أمامهما، وهو ما يتطلّب طرح كل ما يمت إلى هذه العملية من قضايا علمية، هناك جملة من المسائل التي لا تكون بحكم العقل النظري ضرورية لعملهما ولكنها تتصف بهذه الضرورة عندما تبدأ بالتأثير على الأمور الضرورية أو الأساسية في المعرفة. ولهذه الضابطة علاقة كبيرة بالزمان والمكان.

فعلى سبيل المثال، لو فرضنا أن المجتمع لم يهتم ولم يتعرف على حقيقة الجن ودوره في نظام الوجود (حيث أن الكثير مما يتعلق بهذه القضية مما لا يؤثر على كمال الأنسان، أي لا يؤثر على عمل عقله وفطرته)؛ ثم طرأت بعض الأحداث أو الظروف التي جعلت الناس يتناولون قضية الجن بطريقة بدأت تهدد عقائدهم الأساسية؛ كما إذا أشيع أن للجن مؤثرية مستقلة في مصير الإنسان وإرادته، فعندها يصبح طرح هذه القضية ضروريا ولازما.

وهكذا، يكون للظروف الاجتماعية ومقتضيات الزمان في أغلب الأحيان الدور الأساسي في تحديد ما ينبغي نشره أو تعليمه. وعلى هذا الأساس لزم

أن نبحث عن الأصول العلمية لدراسة الظواهر الثقافية وحجم تأثيرها وانتشارها.

وعلينا ان نتوقع أن المجتمع سوف يضيف إلى ثقافته في كل مرحلة من حياته مجموعة من المسائل الجديدة. وليس المقصود بذلك الزيادة فيما كتب ونشر، بل إن هذا المجتمع الذي يمر بمراحل تطورية تفرضها طبيعة المتغيرات الإجتماعية سوف يضيف إلى مخزونه الثقافي ما يحتاج إليه في مسيرته تلك.

ان عملية التراكم الثقافي لا تكون، في الغالب، مشهودة من الناحية الحسية، ولكنها أمر حتمي في حركة المجتمعات.

فجميع المجتمعات البشرية تعيش حالة دائمة من عملية بناء ثقافي تراكمي، سواء كان بناؤها محكم الجذور والاعمدة ام لا.

وتلعب وسائل الاعلام والاتصال دورا هاما على هذا الصعيد. فكلما تطورت هذه الوسائل، تقلص الوقت الذي يحتاجه هذا المجتمع أو ذاك في حركته الثقافية التراكمية.

هذه التطورات الثقافية في المجتمع تفرض مجموعة من المسائل الجديدة والمتطلبات والحاجات، التي يفترض بالعالم أن يواكبها؛ ولكن بشرط النظر دائما إلى الوظائف الأربع التي سبقت الإشارة اليها.

قد يطرح البعض أفكارا جديدة تنشر في كتاب وبلغة ميسرة للجميع. ويسعون لجعلها ظاهرة عامة من خلال الترويج لها بمختلف الوسائل الإعلامية. وبالرغم من عمق هذه الأفكار، نجدهم لا يراعون لغتها المعتادة التي يعسر فهمها إلا على المتعلمين وأهل الفن! فإن الاتيان إلى المجتمع

بأفكار جديدة، ينبغي أن يلاحظ فيه مدى تأثيرها على هذا المجتمع في حركته التكاملية وضمن ظروفه السياسية وتحدياتها: كيف تؤثر على المجتمع ؟ هل تعزز الوحدة؟ هل ترفع من مستوى عمل العقل والفطرة؟

وعند التحليل نجد أن هذا التحرك العلمي الذي أريد له أن يصبح ظاهرة قد هدد الوحدة الاجتماعية ولم يعززها عندما طرح تلك الأفكار دون مراعاة الظروف السياسية والأوضاع الاجتماعية بالإضافة الى عدم الاعتناء بالمقدمات اللازمة.

فهذا الكتاب قد أدى بسبب عدم رعايته وتأمينه على المقدمات إلى استهجان كبير وصل إلى درجة الإنكار. مما يعني أنه قد أدى عكس الغرض المطلوب.

ولا يقصد بالمقدمات العلمي منها فقط. فقد تكون سياسية. طرح الامام الخميني(قده) افكارا في غاية العمق ولم تثر الاستهجان في اوساط الأكثرية الساحقة، وذلك لما يتمتع به هذا الامام من مقبولية عالية، نعبّر عنها بالثقة الإجتماعية.

وقد أتى الانبياء بأمور كانت في منتهى الغرابة بالنسبة للبشر العاديين، لكنهم عليهم السلام لم يطرحوها بدون مقدمات. وكانوا أشد الناس رعاية للعقول حتى قالوا إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم. فالبناء والتربية العقلية تعد من أهم أهداف الانبياء كما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام بشأنهم: "وابتعثهم.. ليثيروا لهم دفائن العقول".

وبذلك نكون قد اشرنا الى بعدين. ينبغي الالتفات اليهما اثناء طرح الافكار الجديدة، فيما عبّرنا عنه بعملية التراكم الثقافي: الاول:السياسي المتعلق بالوحدة الاجتماعية. فعندما تشكل الافكار الجديدة ظاهرة،

سيقبلها البعض ويرفضها آخرون، مما يشكل أرضية حدوث النزاعات والخلافات. و لا شك بأنه ليس بمقدور أحد أن يحول دون جميع أنواع الخلافات والنزاعات: وإلا لكان علينا ان لا نطرح شيئا من الأساس. لهذا ينبغي الخوف والحذر من النزاعات التي لا يكون لحلّها أفق واضح، وتفتقد إلى مرجعية مقبولة عند الأكثرية. والثاني هو الجانب الفردي المتعلق بالبناء العقلي والفكري للإنسان.

ان طرح الافكار الجديدة يعد من لوازم التغيير الإجتماعي. لكن إذا أردنا أن يكون التغيير تقدميا تكامليا، ينبغي مراعاة العناصر المذكورة. ففي ظل النزاعات والخصومات لا يتوقع أن تتحرك الطاقات باتجاه الإصلاح. ومع عدم تثبيت الأصول العقلية والفطرية سرعان ما تبوء التحركات العلمية بالفشل والإحباط.

ملاحظات مهمة

من مسؤوليات العالم نشر الحقائق وتبليغ المعارف الإلهية. بيد أن مجرد تبليغ المعارف والحقائق دون اعتماد اطروحة واضحة المعالم والأهداف يشكّل عاملاً سلبياً كبيرا.

ولا يمكن استفادة الاطلاق من روايات مدح العلم والتعليم، وهو المقيد في رد الامام الصادق (ع) على الحسن البصري الذي كان يستنكر على الذين يكتمون العلم كتمانهم مستندا إلى الحديث النبوي الشريف: "من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة" حيث قال عليه السلام: " فهلك إذاً مؤمن آل فرعونٍ والله مدحه بذلك، وما زال العلم مكتوماً منذ أن بعث الله نوحاً(ع)" ومثلها كثير. فالظاهر من الرواية أن مجرّد تبليغ المعارف لأجل تبيان الحقائق ليس القاعدة التي ينبغي ان نرجع إليها في اعتماد برامج التبليغ والتعليم، ولا يصح الاستدلال بالإطلاق الموجود في الحديث النبوي لتبرير كل التحركات والأنشطة العلمية كيفما كانت.

ولأجل الاقتراب من هذه الأطروحة، نحتاج إلى تصوّر المسألة التالية:

في عالم نفس الأمر والواقع عند الله (سبحانه وتعالى) يوجد بين مجموع الحقائق الوجودية نظام خاص ونسيج معين يربط فيما بينها. وسواء كانت

هذه الحقائق الوجودية تشمل ما هو كائن أو ما ينبغي أن يكون، لا فرق بين كونها تكوينية أو تشريعية، فإنها بمجموعها ضمن هذا النسيج الواحد تشكل لوحة بديعة تحكي عن الإرادة الإلهية. والعالم الحقيقي هو الذي يصل إلى تلك المرحلة التي يعرف فيها هذه اللوحة. نعم يوجد تفاوت بين العلماء، كما يحصل التفاوت بين أولئك الذين يمعنون النظر في اللوحات الفنية. فمنهم من يعرف دقائق اللوحة ويتمكن من قراءة الكثير مما قصده الرسام في زواياها وتفاصيلها. ومنهم من يشاهد مجموعة من الألوان مع وضوح المعالم الرئيسية، وهكذا.

ولو أخذنا لوحة فنية تمثل مشهدا لمنزل ريفي يوجد خلفه سلسلة من الجبال الممتدة في الأفق البعيد، وفي الوسط حقول وسهول شاسعة ترعى فيها قطعان من شتى أصناف الأنعام، وفي السماء شمس وغيوم وطيور، فإن الذين يشاهدون هذه اللوحة ثم ينقلون ما شاهدوا للآخرين فئات وأصناف: فمنهم من لا ينقل لنا منها سوى المعالم الأساسية فيقول أنه شاهد بيتا وجبالا وحقولا وسماء. وهناك من يضيف بعض التفاصيل، حتى يصل الأمر بالبعض الى ادراك ما كان يجول في ذهن الرسام وما قصده من اختيار الألوان ووضع الاشياء في علاقتها ببعضها. وقد يلاحظ القليل من هؤلاء أن الرسام قد تعمد اخفاء مجموعة كبيرة من الاشياء داخل هذه اللوحة، فهناك قصر لا يظهر للوهلة الأولى، وهناك طائر كبير في السماء لا نلحظه بنظرة سريعة الى الغيوم والسحاب.

ولكي يكون المرء عالما بالحد الادنى ينبغي أن يكون مدركا للمعالم الرئيسية للأطروحة الدينية. ويقابله في النقيض ذلك الذي ظن ان المرسوم في اللوحة هو قطار يتحرك على سكة حديدية تعود الى عصر البخار.

أن أيـة اضافة لونية صحيحة ينبغي ان تراعي المعالم الرئيسية والخطوط التي حدد فيه الرسام الصورة العامة لما يريد. وبتعبير اليوم، لا ينبغي التلوين خارج الخطوط والاشكال. وهكذا يتحرك العالم بشكل تكاملي انطلاقا من فهم هذه الروح الكلية والاطار العام.

واذا كان ما شاهده أو تصوره من هذه اللوحة الكاملة مقطعا محددا، فإنه، وإن أصاب الحقيقة، لن يتمكن من نقل المشهد المطلوب ولن يعبّر عن مقصد الرسام وهدفه. فالرسام لم يقصد رسم الطيور لوحدها. وهذه الطيور لا تعبر عما يجول في باله.

فالمعالم الأساسية هي التي ستوصلنا الى روح هذا الدين ومقاصده.

هذه المعالم يمكن التعبير عنها بأنها أدنى درجات الدين ومراتبه. فالدين متين وله مراتب وأعماق، تبدأ من ظهوره في عالم الطبيعة والحياة المادية للإنسان. وبعبارة أخرى، يقدم الاسلام تصورا واضحا حول انتشال البشر من حضيض دركات الحياة بعد تصوير هذه المرتبة وعلاقتها بما دونها.

إن تطبيق برامج الدين، لكي تكون منتجة ومفيدة، ينبغي أن تبدأ من ظاهره، أي من معالمه الرئيسية مثلما أن تصوره على واقعه ينبغي أن ينطلق من صورته الكلية التي تمثل ظاهر اللوحة، ثم نرتقي في هذه المعرفة حتى نصل إلى حقيقته وروحها وجوهرها.

ولقد رسمت الصورة الكاملة للوحة الاسلام البديعة بكل تفاصيلها في عالم نفس الامر ومقام عند الله. ورغم ذلك، لا يُدّعى انها اكتملت في الواقع الثقافي للمسلمين، والذي كانت أفكارهم تعبيرا عنه طوال القرون الماضية.

ولا شك بأن الكثير من التفاصيل والألوان قد صبغت اللوحة المتصورة عند

كل فريق منهم بأنها الإسلام. وعند الدراسة والتحليل نجد من هذه الالوان ما كان دخيلا على اللوحة، وبعضها لم يرسم بالشكل الصحيح، وهناك خطوط أعيد رسمها مرات ومرات حتى شكلت خطوطا سميكة جدا أخلت بانسجام اللوحة، او حادت عن مكانها الصحيح فشكلت خللا فادحا فيها.

وفي محاولتنا لتصوير هذه اللوحة انطلاقا من مرتبتها الدنيا ينبغي أن نتساءل: لماذا رسم العالم الفلاني تلك الخطوط المكررة فوق الخط الذي رسمه من سبقه؟ ولماذا أمعن فلان في تلك الزاوية من اللوحة دونا عن سواها؟

وعلى هذا الأساس نحتاج عند تصوير أية مرتبة من الاسلام إلى ما يرشدنا الى صحة ما نقوم به. وبما ان المرتبة الدنيا للدين هي الظاهر الذي عليه الناس بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله، (كما في الحديث) يفتح باب العلاقات الزوجية الشرعية ويغلق باب السفاح وتحفظ الدماء وتؤمن المنافع الدنيوية، فإن المعيار في الحكم على صواب هذه الرسمة ودقتها ينطلق من لحاظ المصالح الأرضية للمجتمع البشري!

أدنى أبعاد هذا المعيار هو الفائدة الدنيوية المشار اليها في حديث الامام الصادق " الاسلام يحقن به الدم وتؤدى به الامانة وتستحل به الفروج".. والثواب على الايمان". وفي خطبة لأمير المؤمنين(ع) يذكر أن من فوائد الحكومة الاسلامية أن الكافر فيها متمتع حتى يقضى أجله. فعند تطبيق ظاهر الاسلام تقوم الدولة العادلة التي تنعم بالاستقرار والثبات وتراعي التوزيع العادل للثروات وتأمين الحاجات. واذا كان الإنسان في باطنه فاجراً منحرفاً غير تقي، فإنه يتنعم بما ستقدمه له هذه الدولة في الحياة الدنيا وإلى حين الممات.

الحد الأدنى من ظاهر هذا الدين اذاً هو ما يصلح حياة البشرية على المستوى المادي. وعند التأمل الوافي، نجد أن هذا الصلاح لا يمكن ان يتحقق بدون إقامة العدالة الاجتماعية. فإذا لم تتحقق العدالة الاجتماعية، فإن الأهداف الأخرى للدين لا يمكن ان تتحقق على المستوى الإجتماعي. وعلى مستوى الأفراد، فإن تحقق هذه الأهداف لن يكون متيسرا ما لم يكونوا عاملين على طريق تحقيق العدالة الأجتماعية. وبفهم هذه القضية يفتح الباب أمام الفهم الواعي للدين بكل مراتبه وتكون الصورة الكلية قد اتضحت، وانطلاقاً منها ينبغي إكمال رسم اللوحة البديعة للإسلام.

العدالة الاجتماعية هي معقد الخيط الذي ينبغي ان يبدأ منه النسيج الفكري. وبدونه ستبقى النظرية الاسلامية لإدارة الحياة فاقدة للمعنى. سئل أمير المؤمنين(ع) "أيما أفضل العدل أو الجود؟ قال: العدل يضع الأمور مواضعها والجود يخرجها عن جهتها، والعدل سائس عام والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وافضلهما". وبالعدل قامت السموات والأرض. ومن دونه لا حياة كريمة للبشر. وعلى أساسه يتحدد أجل الأمم والدول.

وكما ان العدالة هي أساس وجود المجتمع وبقائه، فهي كذلك على المستوى الفردي. فإذا لم يتحقق في نفس الإنسان نوع عدالة واعتدال بين قواه المختلفة فإن هذه القوى ستجمح به إفراطاً أو تفريطاً، وتكون سببا لخروجه عن إنسانيته.

ففي ظل بحثنا عن المصالح الواقعية للإنسان والمجتمع، نهتدي إلى المعالم الرئيسية للإسلام، حيث تقف العدالة بشقيها الفردي والاجتماعي كمقدمة أساسية لتلك المصالح. وقد تفطن الشهيد السعيد العلامة المطهري الى موقع قاعدة العدالة الإجتماعية في المنظومة الفقهية فعدّها

ركنا أساسيا ينبغي بناء صرح الفقه والفقاهة عليه، وتوقع تبعا لذلك حدوث تغيرات كبيرة على مستوى الأبحاث والنتائج التشريعية.

ولعلنا انطلاقا من هذه النظرة نستطيع ان نصف حال المجتهد الذي يستغرق في مباحث الطهارة وقواعدها الى الدرجة التي تصبح فيها حاكمة على غيرها من الابحاث والدراسات الفقهية، كالذي يستغرق في رسم شجرة في تلك اللوحة دون ملاحظة ما سواها. وبالرغم من أنه ينقل الحقيقة إلا انها الحقيقة الناقصة. ومع أنه يخبر عن الواقع بدرجة ما، إلا انه لن يكون تجليا للواقع الذي نبحث عنه، نظرا لخلوه من الروح والغاية.

وتزداد المشكلة وتعظم في سعي هذا المجتهد بعد رسم تلك الشجرة ليبني عليها بيتا ويرسم فوقه جبالا.. قد يكون هذا حال من يريد عرض الدين وتفسيره باستعمال قواعد الفقه وأصول الفقه التي تصلح للإستدلال في مجال الأمور العرفية (المبني عليها الأحكام) دون عالم التكوين والحقائق العينية. فكأنه بذلك يريد استعمال نفس الريشة التي رسم بها الشجرة وألوانها ليرسم تفاصيل اللوحة كلها.

وعليه، فإن الحاجة الى هذا المعيار كأصل معرفي لامتلاك التصور الصحيح حول الدين تصبح ملحة في ظل الاستخدام العشوائي للأدوات المعرفية غير المناسبة او التي تستخدم في غير محلها. فالاسلام دين دائمي الانتاج والإثمار في حياة الفرد والمجتمع، لا يمكن بتطبيقه الا حصول النتائج الملموسة على صعيد التكامل والتطور؛ ولهذا لا يمكن ان يطرح معلومة واحدة دون ان تكون ذات فائدة تساهم في كمال الانسانية. فالدين برنامج نفع البشر وسعادتهم، وليس دين العلم والمعرفة المجردة التي تكتفي بكشف الواقع ووصفه. بل إنه يتلو الآيات من أجل تحقق التزكية والتكامل والوصول

الى الحكمة التي تهدف الى تحقيق التقوى ومخافة الله. على اساس هذه القاعدة نتعرف الى ما رسم من لوحة الاسلام حتى الان فنقرّب كل ما هو منتج ومفيد ونستبعد كل ما هو مبهم وغير مفيد من التراث، لنعرضها امام اعين النظار والمشاهدين. فهنا مسؤوليات ثلاث:

أولا: التعرف على ما تم رسمه حتى الآن من هذه اللوحة. فهناك جهود جبارة بذلت خلال هذا التاريخ ورسمت من هذه اللوحة الكثير الكثير. نعم في الأثناء كان هناك جهود أخرى عبثية أو غير مبالية أو غير دقيقة تضع ألوانا فوق هذه اللوحة وتجعلها صعبة المنال. وينبغي أن ينصب قسم مهم من أعمالنا العلمية على محو هذه الألوان التي علقت بهذه اللوحة.

ثانياً: تحديد ما هو ناقص ويحتاج الى إكمال باعتبار ان هذه اللوحة لم تكتمل في الواقع الثقافي والتراثي المعروض.

ثالثا: أن نعرض هذه اللوحة وإن بقيت تفاصيل عديدة منها دون رسم ليقوم من يأتي بعدنا أو حولنا بإكمال المهمة وإتمام الحجة. فالمهم أن نزيل عنها تلك التشوهات والألوان الإضافية ونعرضها في المتاحف والمعارض المختلفة ليطلع النظار على روعتها. فإنها مع نقصها تأخذ بمجامع القلوب وتخلب الألباب. ولا حد لأشكال العرض، قد يجيد كل واحدٍ منا أسلوبا خاصا للعرض، وربما يكون في الأمر فائدة عظيمة.

ما ينبغي أن يشغل بالنا في إحدى مراحل أعمالنا العلمية المهمة وقبل أن ننتقل إلى مهمة العرض (التبليغ) هو موضوع تحديد النقص في هذه اللوحة. فبينما نرسم، سوف نكتشف أن هناك أماكن معينة لم تُرسم في هذه اللوحة أو لم تتلون فنملأها بما يلزم. وهذا ما يعبر عنه في المباحث العلمية بالإضافات أو التطوير العلمي، كأن يكتشف العلماء بعض القوانين

الموجودة في عالم الطبيعة التي تزيد من رصيد مجموعة من العلوم. إلا أن هذه الاضافة تتصف بصفة التراكم والتضافر التكاملي، لا التزاحم والتضاد الفكري الذي يغلب على المباحث الدينية بشكل ملفت، ولعله يشكل السمة البارزة لتراثنا الاسلامي.

كذلك لا يكون من الاهتمامات الرئيسية لعلماء الفيزياء ايراد كل الآراء حول القانون المذكور الا بما يؤثر فيه، لأن ما يشغلهم هو تطبيقه وطرق الاستفادة منه. فإن في هذا تضييع لجهود الطلاب والمتعلمين.

فمن المؤسف أن يتم التركيز على القيل والقال ونسبة الأقوال إلى أصحابها على حساب البعد التطبيقي في أي علم أو طرح فكري. والمطلوب تحديد ما ينبغي معرفته في هذا المجال.

وفي المعارف الدينية علينا أن نلحظ المسيرة التراكمية التكاملية كذلك، ونحذر من المغريات التي تبرز أمامنا لتشغلنا بالقيل والقال والأبحاث التي لا طائل وراءها، أو يكون نفعها مؤجلا.

فعندما يكون سعينا لرسم الصورة الحقيقية للدين سوف يتبين لنا أين يكمن النقص وما هي المعارف الجديدة التي تطور التراث وتزيده عظمة. فالتراث في خدمة الدين، ولا تكون الجهود العلمية إلا من أجل الدين، فتنطلق من روحه وأهدافه ومقاصده العليا، ونصون أنفسنا من الاستغراق في التراث لأجل التراث.

أن العديد من الأبحاث العلمية التي نطالعها في تراثنا تجعل من الصعب علينا أن نجد لها دورا واضحا في رسم تلك الصورة، وكأن اصحابها وقعوا ضحية المغريات التي تخاطب الفضول العلمي أكثر من مخاطبة الحكمة الدينية. وهي في معظم الأحيان وليدة دعابة الخيال والإندفاع دون وضوح

المشروع وتبلور الرؤية. وقد يحدث أن تجرنا هذه القوة الخيالية الى الاستطراد فيما لا نريده وتضفي هالتنا العلمية على ما استطردنا فيه عظمةً تشغل بال المتعلمين والباحثين على مر العصور!! وتكتب الحواشي والتعليقات وتصنف الكتب لشرح العبارات الغامضة والجمل المعقدة. هذا ونحن غافلون عما يراد..

عندما ندخل في الدراسات الدينية المعمّقة ونعتبر أن علم الكلام أو الفلسفة أو أصول الفقه أو أمثالها هي مناهج علمية وليست هي الدين بذاته، ينبغي أن نتعرف على منهجيتها قبل أن نتعرف على نتائجها. عندما ندرس هذه المعارف، علينا أن نلتفت إلى الهدف من الدخول في هذا البحث أو ذاك، وما هي ثمرة اعتماد هذه المنهجية دون سواها؟ وكما أن غير الجائع وغير المهتم بجوع الاخرين لن يلحظ الثمرة ولن يبحث عنها أصلاً، هكذا يكون الإنسان الذي رضي بعلمه وأنس به. يعتبر أنه قد بلغ الغاية القصوى من دراسته وحقق كل ما ينبغي أن يحققه العالم. وبالتالي سيُحرم من الثمار المرجوة للبحث الصحيح.

يمكن تشبيه الإسلام بالكائن الحي. وقد ورد في بعض الروايات تشبيهه بالجسم الذي له رأس وعينين وأذنين ويدين ورجلين. والحياة تستلزم التحرك، والوعي يستلزم الهدفية. فأعضاء الكائن الحي الواعي تشترك فيما بينها من أجل ايصال صاحبها الى هدفه المنشود، ويؤدي كل منها دوره المطلوب منه على أتم وجه.

ومثلما يفعل علماء الأحياء في دراستهم لعمل أجهزتها ووظائفها وتفاعلها فيما بينها ينبغي ان ندرس الاسلام ونتعرف عليه، انطلاقا من هذه الرؤية التفاعلية.

وقد يصاب الكائن الحي بالأمراض وتعرض عليه الآفات، فيتحول إلى مخلوق مشوّه. وفي بعض الحالات يتحول الى أحد المسوخ، وفي النهاية يقضى عليه وينقرض. كذلك الأمر بالنسبة للدين الموجود في صدور العلماء والأتباع، فانه قد يصاب بالآفات من خلال سوء فهمه وعروض الأغراض والأهواء عليه، فيقدَّم في كثير من الأحيان مشوّها أو ناقص الخلقة لا يقدر على تحريك الاتباع نحو الأهداف المنشودة. وقد قرأنا في صفحات التاريخ الممتد للمسلمين كيف قام بعض علماء السوء بتحويل الاسلام في أنظار الناس الى مخلوق بشع أو مدمر أو أداة بأيدي الطواغيت وملأهم.

وما من أداة يمكن أن تتحول إلى أداة للاستغلال السيئ كالدين، وبالأخص إذا كان ديناً بهذه العظمة، كالإسلام، الذي استطاع ان يتحول الى أعظم قوة تحريكية في حياة الشعوب. فمع العمق والسعة تزداد خطورة التحريف. وبحسب ما نعرفه فأنه لم يتيسر لنبي من الانبياء ما تيسر لرسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) من تعميق المفاهيم الدينية ونشرها على نطاق واسع.

ولتقريب الصورة، نفترض مخلوقا ضعيف البنية قصير القامة ذو يدين ورجلين يستخدمهما للقيام ببعض الأمور البسيطة. فلو تم استغلال هذا المخلوق، فإن خطره سيكون بمقدار حجمه وقدراته البسيطة. لكن لو تصورنا أن هؤلاء المستغلين استطاعوا أن يركبوا مخلوقاً كبيرا ذا يدين عظيمتين ودماغ صغير، فلا شك أن استغلاله سيكون أعظم خطرا لأن قدراته التدميرية ستكون اعظم وأكبر.

وقد نشر هذا الدين من المعارف والحقائق ما لو اقتطع من منظومته، ووضع أو ركب في مكان آخر لخلق كائنا مشوها شديد الخطورة. وإذا كانت

قبضة من أثر رسول موسى عليه السلام قد عبدّت بني اسرائيل العجل، فإن قبضة من أثر رسول الله صلى الله عليه وآله أوصلت المجتمع الإسلامي الى ارتكاب فاجعة كربلاء.

ولأن الإسلام كائنٌ حي متحرك ومنتج، علينا أن نتعرّف على أعضائه وأجزائه، لكي نتعرف على وظائفه وأدواره في الحياة بشرط أن تراعي هذه المعرفة قانون التبادل الوظيفي في الكائنات الحية.

إن أكبر جريمة ارتكبت في حقل الطب بحق الانسانية، ولا زالت ترتكب كل يوم، عندما قام علماء الطب بالتعامل مع الانسان كمجموعة أعضاء وأخذوا كل عضو على حدة. ورغم أنهم يحققون إنجازات مشهودة في معالجة الأمراض التي تصيب هذا العضو أو ذاك، لكنه يتسببون في نفس الوقت بإصابة الأعضاء الأخرى بأمراض جديدة أشد فتكا. لقد كشفت الدراسات الأخيرة وبشكل يقيني أن بعض عقاقير الكآبة والانحطاط كانت مسؤولة بالدرجة الأولى عن الكثير من حالات النوبات القلبية. كل ذلك، لأن أطباء الاعصاب تعاملوا مع أعصاب الانسان بمعزل عن قلبه وأجهزته الأخرى.

لم يعترف الأطباء بأصل هذه المشكلة ولن يعترفوا في المدى المنظور، لأنهم يرون أمامهم دربا طويلا من التراجع والإعترافات اللامتناهية!

ولا شك بأن الذي يريد أن يبني صورة واقعية عن الانسان، فإنه لا يضع القلب مكان الكبد ولا الرجل مكان الدماغ. فإن هذه الصورة لا يمكن ان تنتج كائنا حيا. وعندما نريد تصوير الدين بالشكل المنتج (على قاعدة الحياة والحركة الهادفة)، فإن وضع كل جزء منه في مكانه سيكون أولى الأولويات. وفي غير هذه الحالة سنقدم لوحة سوريالية لا تحقق لها سوى في عالم

الذهن.

فالمعارف الأخلاقية لا تحل محل المسائل العملية، والفقه غير قادر على تفسير ظواهر الوجود وما هو متحقق في عالم التكوين. وعندما نسعى لدراسة المسائل الكونية باعتماد المنهج الفقهي، فإننا سننتج كائنا مشوها لا يمت الى الدين الأصيل بصلة.

وقد يستغرق البعض في دراسة أحد الأجهزة العضوية لهذا الكائن والتعرف إليه، حتى يخيل إليه انه هو الكائن المطلوب.

وعليه، نحن بأمس الحاجة الى الكشف عن المنهج الذي يدرس الوظائف المختلفة لأعضاء هذا الدين، وعدم الاكتفاء بدراسة كل عضو على حدة. ولو فرضنا أن الاعضاء الرئيسية للإسلام هي الفقه والأخلاق والعقيدة، وفرضنا تبعا لذلك، أنه ما من مسألة من مسائله إلا وتندرج ضمن أحد هذه الحقول المعرفية، لوجب علينا بعدها أن نتعرف على العلاقة الوظيفية بين هذه المسائل، لكي تتشكل الصورة التامة للدين، ويتحول الى كائن حي متحرك يسعى بأتباعه لايصالهم الى الأهداف المنشودة.

يستوقفنا في هذا المجال مثال بارز كان موردا للابتلاء على نطاق واسع حيث تتبين الحاجة الماسة الى المنهج المطلوب. فعندما طرحت قضية ولاية الفقيه في الساحات الاسلامية والفكرية المختلفة، انطلقت الدراسات المختلفة المؤيدة والمعارضة. وقد أثارت بعض النقاشات لغطا وأوقعت العديد من المخلصين بإبهامات وشبهات. فمنهم من صور ولاية الفقيه على أنها مسألة عقائدية، ومنهم من اعترض بشدة وتمسك بفقهيتها وكونها مسألة شرعية تعبدية، معتبراً الرأي الأول نوعا من الغلو والتعنت. غافلين عن أن هذه المسألة لها امتداد في جميع حقول المعرفة نظرا لوظيفتها الحساسة

ية الحياة البشرية. فعندما نتحدث عن ولاية الفقيه باعتبار ضرورة وجود قائد الهي يتمتع بمواصفات تؤهله لأداء دور الاحتجاج على الأمة، فإن المسألة تندرج ضمن مباحث ما هو كائن، مما يقع ضمن عملية الاستدلال العقلي المستخدم في مباحث العقيدة. وعندما يأتي الكلام الى دور الولي الفقيه ومسؤوليته ومسؤولية الأمة تجاهه، فإن المسألة تندرج ضمن مباحث الفقه التي تدور حول تحديد وظيفة المكلّف. وعليه تكون ولاية الفقيه بمعنى حكومته واعماله لحاكميته مسألة شرعية تعبدية، ينبغي التعامل معها كما يتم التعامل مع أحكام الصلاة والصوم وغيرها من التعبديات.

فالاصرار على عقائدية المسألة أو فقهيتها، لعله ينبع من عدم تبين العلاقة الدقيقة بين المسائل الاعتقادية والشرعية والقيم الأخلاقية. ولو اكتشفنا هذه العلاقة التي تمثل روح العقيدة والشريعة والأخلاق لأمكننا بسهولة أن نتعرف على جوانب القضية.

إن لكل قضية من القضايا والمسائل الدينية (باعتبار امكانية التجزئة التحليلية) روحا تتصل بروح غيرها من القضايا حيث يشكل الجميع تلك الروح الكلية للدين، والتي تنتج حياة وتحركا نحو الأهداف أينما سرت.

ومن الأمثلة الشاهدة على تلك المحنة، ما نراه في المباحث المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والوجدانية. فإن الكثير مما يطرح ضمن نطاق القضايا الأخلاقية لا يمكن ادراجه فيها، ولا يمكن تطبيق المنهج الأخلاقي عليه. بل هو من مهمة الفقه والاستدلال الفقهي لأنه يقع في دائرة الوظائف العملية للمكلفين. نجد في مبحث الرياء (على سبيل المثال) أن علماء الاخلاق يعرّفونه كمرض قلبي، ويبحثون بعد ذلك في أحكامه وتفاصيله وطرق علاجه، ولعله لم يُلتفت إلى أن هذه المسألة بحسب ماهيتها ليست من

القضايا الوجدانية، وإنما هي مسألة عملية! فالرياء لا يمكن أن ينفصل عن العمل وهو بذلك غير معدود ضمن أمراض القلب وأن كان نابعا منها. فإن من خصائص الأمراض القلبية إمكان تصورها بمعزل عن العمل، وهذا ما لا نجده في الرياء. فالرياء مسلك عملي، ولهذا فإن معالجته ينبغي أن تتم ضمن دائرة الدراسات العملية والشرعية. فإذا كان التظاهر بالعقائد الصحيحة لأجل الحصول على المنزلة في القلوب عملاً مذموماً فما هو حكمه؟ وإذا كان التظاهر بالعبادات والطاعات من أجل التأثير في قلوب الناس حراماً فما هو طريق التخلص منه؟

فالقضايا العملية تعالج في الإفتاء والاحكام الشرعية وليس في الوجدانيات والقيميات.

والأمثلة التي تحكي عن الخلط المنهجي لا تحصى، وأحد الاسباب الكامنة وراءه ترجع إلى عدم تصور الدين ككائن حي ذي أعضاء تتفاعل فيما بينها بطريقة فائقة التنظيم قائمة على أسس وقوانين.

من المباحث المهمة التي تمس الحاجة إليها في عصرنا الحالي: دور الرؤية الكونية والمسائل العقائدية في عملية الاستنباط الشرعي وفهم قواعده. وتنقيح المسائل الأخلاقية وتخليصها من الشوائب العملية العالقة بها لتبرز أمامنا بصورة الوجدان وتتضح علاقتها بغيرها من القضايا لتحقق النتيجة المطلوبة منها.

المعرفة والقيم

إن مسؤولية العالم تجاه أمته ترتبط بنحو كبير بدور العلم والمعرفة في صناعة القيم والمعتقدات التي توجّه المجتمع وتحرّكه. وبعبارة أخرى،

ترتبط بدور العلم في بناء ثقافة المجتمع وتشكيلها. فالمعرفة التي تُضخ في المجتمع ولا تؤدي إلى بناء القيم أو تعديلها ـ ولو على النحو التراكمي البعيد المدى ـ تعبّر في الواقع عن حركة عبثية خالية من الفائدة. فلهذا ينبغي أن يمتلك العالم حساسية مفرطة تجاه الثمرة المرجوة من كل علم ومعرفة، فيستشعر من وراء كل تحرك تعليمي أو تبليغي نتائجه وثماره. وباختصار، إن العالم الحقيقي هو الذي ينأى بنفسه عن الدخول في أي نشاط علمي لا يثمر ولا يؤدي إلى صناعة القيم التي توجّه المجتمع. ولهذا يكون تعليمه وتعلّمه لأجل العلم فقط.

ولا شك بأن لكل مجتمع من المجتمعات مجموعة من القيم السائدة والمتبناة من الاغلبية. هذه القيم المتعلقة بالوجود والمصير ونمط الحياة وأسلوب التربية وغيرها من القضايا المصيرية تشكل اركان النسيج الاجتماعي، والتي من خلالها يُمكن أن يقال أن هذا مجتمع واحد. في معظم الأحيان تكون هذه القيم إيجابية، وإلا لما كانت سببا لتماسك هذا المجتمع. إن المجتمعات الإنسانية لم تتبان أو تتسالم على حسن السرقة أو حسن الظلم وسفك الدماء أو شرافة الطبقية الاجتماعية. وأي مجتمع يعيش طبقية اجتماعية حادة ينقسم على نفسه إلا اذا تبنى ما هو أهم بالنسبة له.

الاصل أن تقوم المجتمعات وتتشكل على أساس تبني القيم الإيجابية الممدوحة عقلاً، وفي غير هذه الحالة فإنها تؤول إلى التفكك والانقسام. ان مجتمعا يتسالم أبناؤه على السحر (الذي يعد من القيم والعادات السلبية) سوف يواجه أزمات حادة تؤدي الى تفككه. ذلك لأن السحر يعطل العقل ويرفض البحث العلمي والإستقراء المنطقي، ويؤدي إلى الخصومات والنزاعات ويجلب الأمراض والبؤس. فإذا تسالم أبناء أحد المجتمعات

على اعتبار السحر أمرا إيجابيا مطلوبا وتبنّوه كقيمة من القيم المشكّلة للثقافة (كما في بعض المجتمعات الأفريقية)، فسرعان ما سيغرق هذا المجتمع في أزمات حادة تجعله على شفير الإنقراض، وخصوصا في ظل التحديات التي يفرضها النظام العالمي الجديد.

ولهذا، يستحيل ان يقوم مجتمع ما ويبقى محافظا على وحدته وبقائه وهو يغلّب القيم السلبية. وعندما نشاهد مثل هذه الحالة، فإن هذا المجتمع سيكون في حركة التغيير التسافلي. فقد تسود القيم السلبية وتتغلب على القيم الإيجابية، لكن هذا المجتمع لن يبقى مجتمعا واحدا في المدى البعيد.

وقد تطرح تساؤلات حول بعض المجتمعات المعاصرة التي تسود فيها قيم سلبية على صعيد الأسرة والعلاقات الجنسية كالمجتمع الأمريكي؛ وبالرغم من ذلك تهيمن على المجتمعات الأخرى وتفرض عليها ثقافتها!

وفي الجواب ينبغي الالتفات الى أن المطلوب أولا أخذ مجموع القيم المتبناة ومقارنة المجموع في كل مجتمع مع مجموع القيم في المجتمع الآخر. وفي حال كانت النتيجة متساوية، ننتقل الى عنصر القوة المادية التي سترجح كفة المجتمع بحسب حجمها وكيفية استعمالها.

ولو فرضنا أن مجتمعا تشكّل فيه القيم السلبية عشرة بالمئة من مجموع القيم المتبناة، فإنه سيكون في الانحدار نحو التفكك والانقراض أسرع من مجتمع تشكل فيه القيم السلبية خمسة بالمئة. وقد تلعب القوة المادية ومدى تفوقها دورا ايجابيا في التخفيف من سرعة هذا الإنحدار وفق طرق استعمالها ضمن الصراع الحاصل على حلبة النظام العالمي.

وحصيلة الكلام: أن تبني القيم السلبية مؤذن بزوال المجتمع وهلاكه إلا اذا قام هذا المجتمع بتغليب القيم الإيجابية والتخلص من السلبي منها.

وستكون القوة المادية بفروعها العسكرية والأمنية والإقتصادية وغيرها عاملا يزيد أو يخفف من سرعة السقوط أو يزيد من سرعة الإصلاح بحسب استعمالها.

وهكذا تتحدد قوة المجتمعات تبعا لمجموع القيم الإيجابية فيها وكيفية إعمالها وتحريكها، ويتحدد تبعا لذلك مصير المجتمعات في ظل الصراع الموجود بقوانينه التقليدية (بمعزل عن استعمال اسلحة الدمار الشامل، التي لها قصة أخرى).

وعندما يغفل العالم هذه القوانين، فإنه سيبقى حائرا دوما فيما يراه من حركة مجتمعه وسيشعر أنه طارئ عليه، فيكتفي ببعض التحركات المحدودة. وفي كثير من الأحيان تظهر حركة هذا العالم أو ذاك وكأنها غريبة يستهجنها معظم الناس؛ اللهم إلا اذا كانت محسوبة ضمن العادات والتقاليد الشكلية (كالقدّاس الذي يتلى في بعض الأماكن الدينية على الأموات).

العالم الحقيقي الذي يريد أن يتحمل المسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقه هو الذي يعرف نبض المجتمع الذي يعمل فيه، فيستشعر ما فيه من قيم سلبية، ويعمل على مواجهتها والقضاء عليها ويقف مقابل هجوم القيم السلبية من المجتمعات الأخرى، ويعمل على تعزيز ما لديه من قيم إيجابية. ولأنه أدرك أن أولى الأولويات للمجتمع المسلم أن يكون مجتمعا متماسكا، يشكل أرضية مناسبة لحماية البرامج الإلهية، التي لا زال الكثير منها في طور الكمون والقوة، فإنه يعمل بكل قوة على المحافظة على وحدته وبقائه. فإذا زال المجتمع المسلم أو صار تابعا للمجتمعات الكافرة، فإنه لن يكون مستعدا لتقبل تلك البرامج وتطبيقها في حياته.

لا ننسى أن وحدة أي مجتمع بشري تتحدد في ظل التبني العام أو الأغلبي للقيم والتسالم عليها، واعتبارها مرجع تحركه ونشاطه وموئل نزاعاته وخصومات أبنائه. إليها يرجعون عندما تشتد عليهم المحن ومنها ينطلقون لبناء غدهم ومواجهة أعدائهم.

هذه القيم هي مكوّنات الثقافة التي نعبّر عنها بأنها المحرك الأساسي لكل مجتمع. والعالم الواقعي هو الذي يستعمل علمه للتأثير في ثقافة شعبه ولا يهمه الكم المعرفي الذي ينتشر في الكتب ومن على المنابر، إلا بمقدار ما يساهم في الغاية المنشودة.

العالم الواقعي هو الذي يعرف جيدا ما إذا كانت تلك القيمة السلبية التي ينبغي أن يحاربها تقع في سلم الأولوية الآن، أم أنه قد يساهم في تقويتها جهلا.

لقد حافظت بعض مجتمعاتنا على الكثير من أركان ثقافتها طيلة قرون من التحديات والمحن. فكيف تحقق ذلك، وما هي العوامل التي ساهمت في حفظ هويتها وأصالتها؟

هل تستطيع تلك العوامل أن تصمد في ظل التحديات المعاصرة، والتي ولا شك أنها من نوع لم تعهده البشرية من قبل؟

اسئلة ينبغي أن يمتلك كل عالم الإجابة الصائبة عنها.

تخضية الثقافة

وهكذا يمثل تراثنا الفكري بمجمله أفضل ما يمكن أن يعبّر عن ثقافة هذا الشعب في قيمه الأصيلة ومنطلقاته الواعية.. ولهذا، فإننا نتحمل

مسؤولية كبيرة تجاه هذا التراث، في خدمته ونشره؛ وقبل ذلك طبعاً في فهمه واستيعابه وبلورته. فخدمة هذا الدين تبدأ من الاعتناء والاهتمام الكبير بهذا التراث. هذا التراث سيشكل أداة فعّالة وسلاحاً قوياً في هذا الصراع الفكري والعقائدي.

وهذا الأمر يحتاج إلى ما يمكن أن نعبرّ عنه بعملية الضخ المستمر في جسم الأمة وكيانها. فثقافة أي شعب إنما تتغذى، وبالتالي تستمر من خلال الضخ الدائم لمفرداتها ومكوناتها في حياة الشعب ومحطاته المصيرية.

فها هنا ثلاثة أمور:

مصادر ومنابع الثقافة

الثقافة الحية (التي تتبنى فيها الأغلبية قيمها وعناصرها)

وعملية الضخ

يقوم العلماء والمفكرون والفنانون والقادة باستخراج ما يمد الثقافة من مصادرها التي هي عبارة عن التراث.

وبمقدار ما تكون هذه العملية قوية وهادرة، فإن جريان الثقافة في عروق الشعب سيكون أقوى، ويزيد من تماسك ومنعة مكوّناتها. أما اذا توقفت هذه العملية أو تباطأت، فإن التأثر بعناصر الثقافات الوافدة سيزداد.

يساهم القادة السياسيون في المنعطفات الخطيرة التي تمر بها الأمة برفدها بقسط وافر من تراثها حيث يستحضرون التاريخ وأمجاده، مع ما يحمله من تغذية ثقافية مؤثرة. وينهض الشعراء للتعبير عن ذلك بأساليب بيانية قابلة للأنتشار بسرعة مميزة. لكن العلماء هم الذين يثبّتون هذه الأركان من خلال عملهم الدؤوب والمتواصل والبعيد المدى، الذي يتمكن من

مخاطبة العقول وليس مجرد العواطف والأحاسيس.

وقد تكون عمليات الضخ والتدفق الفكري والثقافي منسجمة مع حاجات هذا المجتمع. وفي بعض الحالات تصبح بطيئة ولا ترتبط مع التحديات التي يواجهها هذا المجتمع. فعلى سبيل المثال، كانت مناسبة عاشوراء فرصة مهمة لاستعراض المبادئ الأساسية للتشيع الحق. وقد تعرّف الشيعة على مر العصور على مذهبهم الأصيل من خلال هذه المناسبة التي تستخدم فيها أساليب التعزية واللطم. فهل لا زالت هذه المناسبة بنفس القوة والتأثير؟

في تلك الأزمنة لم يكن الأعداء يمتلكون أية وسيلة للتواصل مع شعوبنا، واليوم يدخلون إلى كل بيت وعقل: هل يمكن للأساليب التقليدية التي استخدمت لقرون من الزمن أن تغذي ثقافة هذا الشعب بالإستفادة من تراثه الكربلائي المشرق؟

إن أمس ما يحتاج إليه المشاركون بوعي في عملية الضخ الثقافي ما يشبه ميزان حرارة الجسم، لكي يتمكنوا من معرفة درجة تبني هذه القيمة الثقافية أو تلك. فهل أن هذا الالتفاف حول الخيار المقاوم صار جزء أساسيا من ثقافة شعبنا، أم أنه أمر طارئ تشكل نتيجة الحراك الطائفي في البلد؟!

وبعبارة أخرى، هل تمكّن العلماء والشعراء والقادة السياسيون من ربط هذه القيمة بالعناصر الأخرى التي يؤمن بها هذا الشعب؛ بحيث نجدها متصلة بالقرآن وأهل البيت وبالتاريخ و..

فإذا فشلنا في تحقيق هذا الإتصال: اتصال القيمة الجديدة بشكلها الحالي بالتراث المقدس للشعب، فعلينا أن نتوقع أن الأجيال الآتية لن تقدر على تبني هذه القيمة التي نشأت وترعرت في ظل ظروفها الزمانية والمكانية.

هذه الظروف التي تختص بالجيل الحالي. فهو يفهمها ويشمها ويستنشقها في حاضره نظرا لارتباطها بمصيره وأوضاعه. وليس معروفا إذا كانت هذه الظروف ستستمر كما هي للأجيال القادمة!! فالتراث المقدس أكثر رسوخا وأشد ثباتا، ولا يمكن اقتلاعه بسهولة من بنية المجتمع وتكوينه الثقافي. وعليه، فإن ربط القيم الجديدة به، ستجعلها أكثر رسوخا وأشد ثباتا.

فمن هو المؤهل للقيام بهذا الدور أكثر من غيره؟

إنهم العلماء الذين لهم اطلاع واف على التراث.

وأعظم ما في تراثنا الثقافي أنه تراث ديني بامتياز. والبقية واضحة..

وفي التجربة الاسلامية الفتية، نجد أن الحديث النبوي كان يمثل الضخ الثقافي المتصل بالقرآن الكريم. ولقد أدرك حكام الجور أن بقاء الحديث منتشرا بين الناس سيبقي على الفهم الصحيح للقرآن، فمنعوا من تدوينه ونشره. وصار التفوه بحديث واحد عن رسول الله صلى الله عليه وآله يعدّ جريمة يعاقب عليها الراوي!

بهذه الطريقة قطعوا القرآن عن أن يكون حيا متحركا في حياة الناس، وجعلوا أنفسهم مراجع تفسيره وتأويله، فاستبدلت الأمة قرآنها تحت حجة حمايته بآراء شخصياتها، حتى وصل الأمر أن جعلوا سيرتهم وكلامهم فوق كلام النبي وسيرته..

ثم يأتي الحديث إلى البحث عن المفيد والمناسب في التراث.

ففي التراث الشيعي العظيم الكثير مما كان مناسبا للعصور السابقة، وقد تشكل تبعا للتحديات المتعلقة بها. وهي أمور صارت بحكم العدم. ولهذا نحتاج إلى تصنيف التراث لكي تسهل عملية الاستفادة منه. فنأخذ منه ما

ينفع ونترك ما لا ينفع.

في تراثنا الأخلاقي الكثير مما يصلح ليكون عاملا لترويج الروحانية الأصيلة. لكن هذا التراث يحتوي أيضا على الكثير من العناصر الدخيلة التي تأثرت بتيار التصوف الإنعزالي. وفي تراثنا الكثير مما يرتبط بالقضايا الاجتماعية والسياسية، لكنه لم يستخرج بعد.

لقد أدت الاهتمامات الجانبية طيلة القرن الثالث عشر إلى ضمور العديد من العناصر الإيجابية في تراثنا، حتى صارت كما عبر سماحة الإمام الخامنئي نسيا منسيا.

وفي ظل ما آلت اليه الأوضاع العلمية والنتاجات التابعة لها، يصبح التفتيش في التراث عملا يتطلب جهودا مضنية في العديد من الحالات. والأمل معقود على أصحاب الهمم العالية من علمائنا وطلابهم لإظهار هذه الكنوز الملهمة.

إن عملية البيان هذه لا ينبغي أن تنقطع عن عنصر قداسة التراث وتعظيمه، وإلا لم تؤد غرضها المطلوب. فالشعور بالإنتماء أمر يساعد كثيرا على التبني.

وإذا عدنا الى التقسيم الثلاثي للتراث الفكري. فإن أهم مشاكل القسم المتعلق بالفقه هو غلبة النزعة الفردية على الاهتمامات الاجتماعية السياسية. لكن ما يخفف هذه المشكلة نوعا ما هو افتقاد هذا التراث إلى عناصر البيان الجمالية بشكل كبير؛ مما يحرمه من القدرة على التواصل الجماهيري، ويحصره في نطاق العلماء والمتعلمين.

والقسم المتعلق بالعقيدة والرؤية الكونية متوفر على أجمل الحقائق

وأكثرها روعة؛ لكنه غارق في مستنقعات الجدالات الكلامية، التي تجعل عملية استخراج تلك المعاني أمرا شاقا ومجهدا.

فإذا كان التحدي الأكبر في تلك الأزمنة يكمن في اثبات الاعتقاد الصحيح أمام المذاهب المتغلغلة في المسلمين، فإن التحدي الأبرز اليوم في الأفكار والشبهات الوافدة من الغرب العلماني الذي استحدث منذ عشرات السنين لغة عالمية ميسّرة.

وتبرز المشكلة عندما نريد أن نعبّر عن تراثنا الفكري بالأسلوب التقليدي، فتبدو أفكارنا بعيدة كل البعد عن إهتمامات الناس واحتياجاتهم. ومرد ذلك بالدرجة الأولى إلى الاسلوب العالمي في البيان. لغة جديدة يفهمها جميع الناس!

إن تراثنا الفقهي يتوفر على الكثير من الأحكام المتعلقة بالمرأة. لكن الاسلوب الذي تمت فيه معالجة قضاياها لا يفهم اليوم إلا بسياق الإهانة والتحقير. وهو أمر أضحى مساويا تماما لإهانة الانسانية.

موقع الثقافة في المواجهة

إن ثقافة الشعوب والأمم تعبّر عن توجهاتها. يمكننا أن نستشرف مستقبل شعب ما من خلال ثقافته بالإضافة إلى الاطلاع الوافي على قوانين النظام العالمي. ففي ظل الصراع والتصادم الجاري بين الأمم، يعمل كل شعب قدرته القومية من خلال ثقافته.

الثقافة لا تتشكل بين عشية وضحاها؛ فهي عمليةٌ تراكمية تحدث عبر الزمن الممتد في حياة الأمم، ولكنها من جانبٍ آخر تتأثر بصورة ملحوظة بالأحداث الكبرى والمصيرية التي تمر بها هذه الشعوب. لكن هذه الأحداث

الكبرى تتفاوت من حيث مرورها الزمني بين شعب وآخر. وذلك نظرا إلى موقعها الجيوستراتيجي. ومع اشتداد وتيرة الأحداث تزداد ثقافة الشعب غنى وتشعبا. ففي ظل هذه التغيرات تتفاعل جميع العناصر المصيرية في الحياة.

هناك شعوبٌ تمر بمنعطفات مصيرية في حياتها كل عشرين سنة، وهناك شعوبٌ تمر عليها قرون لعلها لا تواجه أحداثا مصيرية. فأهالي نيوزيلاندا ربما لا يعرفون شيئا عن الحروب أو النزاعات والتهديدات الدولية والإقليمية. وبتبع ذلك يكون تفاعلهم وتحولهم الثقافي بطيئاً جداً. ولكن لبنان على سبيل المثال يقع على مسار حركة التاريخ الهادرة والقوية، لأن الصراعات والتحديات المحيطة به تصل كل حين إلى مستوى الوجود والمصير والهوية.

وقد تصل طبيعة الصراعات في هذه المنطقة الى الدرجة التي يستجمع فيها المتخاصمون تاريخهم الذي يمتد لمئات وآلاف السنين. والشعب الذي يُطالب بتحديد هويته التاريخية وانتمائه ثم يعجز عن ذلك، ويتراجع عن ممارسة دوره الحضاري، فإنه يبدأ بخسارة هويته. وهذه هي الخسارة والهزيمة الواقعية.

وفي المقابل، فإن الشعب الذي يقرر الصمود والمواجهة نراه يستحضر كل مكونات الهوية الذاتية وعناصرها؛ ومنها ولا شك التراث العلمي الذي نفتخر نحن بأنه أغنى وأعمق تراث في العالم. فعندما تدخل النشاطات العلمية في معركة تحديد الهوية والدفاع عنها، تصبح أعمالا هادفة ذات مغزى، وتتفاعل فيما بينها في مسير تكاملي لا يعرف الضياع.

لا شك بأن الوسائل المتاحة ليست مناسبة لطبيعة المعركة، فأكثر هذه

الأدوات استخدمت قبل قرون في المعارك المذهبية والكلامية حيث إختلف التحدي إختلافا جوهريا. ولكن من جانبٍ آخر نحن مطالبون بالتفكير الملي فيما نمتلكه من معرفة وعلم، وإجراء مقارنة موضوعية مع علوم الآخرين بمراعاة المعايير المشار اليها آنفا على مستوى المصالح الواقعية. فليس المهم أن تكون الحقيقة بيدك، بل في كيفية استخدامها في الحياة. ولو كنت تمتلك تسعين بالمئة من الحقيقة ولا تطبق منها سوى القليل، بينما ترى عدوّك أو خصمك يستخدم كل الحقيقة التي وصل إليها وهي التي تصل إلى ما يقرب الخمسة بالمئة، فإنه سيتفوق عليك!

ملحق: جدول بالمعارف الأساسية

الاعتقاد بأن القرآن الكريم يحمل المعارف الأساسية التي يحتاج إليها الانسان في مسيرته التكاملية حملنا على استنطاقه واستخراج هذه المعارف لتكون تأسيسا للبنية المعرفية لكل فرد مسلم.

ستكون المعارف الاخرى ثمرة الإلتزام والعمل بهذه المعارف فلا تحتاج الى تعلّم. وستمثل هذه المعلومات ما يمكن أن يكون معيارا لقياس الحد الأدنى المطلوب للمعرفة اللازمة لبناء الشخصية الإسلامية الملتزمة.

لا ندّعي أننا شملنا كل ما هو مطلوب ضمن هذه الدائرة، لكننا سعينا بجد لتحقيق هذه الأمر، على أمل ان يكمل المهتمون في الحقل المعرفي هذا المشروع. رجاؤنا متعلق بالله عز وجلّ ان يوفقنا لبيان المعايير المعتمدة في تحديد المعارف الضرورية التي أشرنا الى أركانها النظرية ضمن الفصول السابقة.

من الملاحظ أيضا أن معظم هذه المعارف تعد في عرف المؤمنين بديهية. لكن هذا لا يعني أنها حاضرة في الوقت المناسب، أي وقت العمل والتطبيق. فالتحدي الاكبر يكمن في درجة تطبيقها، والقدرة على مواجهة نقيضها أو ضدها.

تخبرنا التجارب التعليمية أن العديد من طلاب المعارف الاسلامية يسرعون بحكم الفطرة الى قبول هذه المعارف من جهة، لكنهم لا يكونون بمأمن من الوقوع في النقيض. وهذا يحكي عن مستويين للمعرفة. الأول في عالم النظرية والتعقل، والثاني في عالم العمل والتطبيق. وعند الامتحان والتطبيق يتبين مدى صدق تبني هذه المعارف والإيمان بها. وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إنكم لن تعرفوا الحق حتى تعرفوا الذي تركه. وعن الامام الصادق عليه السلام: إن بني أمية علّموا الناس التوحيد ولم يعلموهم الشرك حتى إذا حملوهم عليه (أي على الشرك بالله تعالى وخصوصا بمظاهره الخفية) لم يقوموا عليهم.

ولو فرضنا أن بإمكاننا أن نحصر جميع المعارف المتعلقة بحياة الانسان ومصيره، لوجدنا أن هناك الكثير مما ذكر في الكتب لا يمت الى القضايا الأساسية، بل ذكر نتيجة النزاعات الفكرية والخصومات المذهبية والحاجات الترفية. فما نحن بأمس الحاجة إليه أن نتحرر من قيود هذا التراث الواسع ونستخرج منه جواهره الثمينة، ونتمكن في النهاية من تحديد كل المسائل التي يجب على كل انسان أن يسعى لتحصيلها ودراستها فيما لو لم يقدر على فهمها بصورتها البديهية.

فإذا كان ما استخرجناه وادرجناه في هذا الفصل قد راعى المعيار المذكور، فإن الأمل معقود على أن يكمل الباحثون في هذا المجال المعرفي الحساس هذا البناء ليكون صرحا تنطلق منه جميع البرامج التعليمية.

- كل ما يجري في هذا العالم يقع تحت تدبير الله ومشيئته. وتدبيره تعالى تابع لحكمته وهدايته ورحمته.

النقيض: أن يعتقد المرء أن أمريكا - مثلاً - تدبر العالم كما تشاء وتديره كما تحب وأن القوى الكبرى تصل إلى ما تخطط له دوماً.

- إذا أراد الله أن يعاقب وينتقم لن يقف أمامه أحد. والشفاعة لا تكون إلا من بعد إذنه.

النقيض: أن نعتقد أن الشفاعة مطلقة وحتمية لكل أحد وأنه يمكن الفرار من العقاب الإلهي.

- لو اجتمع العالم بأسره على أن يضروك، فإنه تعالى قادرٌ على أن يكشف الضر عنا مهما بلغ واشتد.

النقيض: الاعتقاد بأن الظالمين أو الطغاة إذا أرادوا إيصال الضر إلينا، وقاموا بكل ما يلزم لذلك سيتحقق المراد.

- إن الحياة فيض إلهي مستمر، فلا حي إلا بإحياء الله. وحياة وبقاء كل مخلوق بالله تعالى. وهكذا الموت أيضاً.

النقيض: الاعتقاد بأن الحياة تستمد من مصدر آخر وإن الموت حتمي دون إرادة الله تعالى.

- الله يغفر الذنوب جميعاً ويصلح أمر المخلوقين في جميع المجالات ويخلصهم من كل الأمراض.

النقيض: الظن بأن الله لن يغفر لنا إذا تبنا توبة حقيقية، أو أن أمراضنا القلبية والمعنوية تصلح من دونه!

- كل رزقٍ نناله منه سواء جرى على أيدينا أو أي سبب آخر يختاره لنا. وعطاؤه شامل غير مقطوع.

النقيض: أن نظن أن رزقه لا بد أن يجري عبر الأسباب الطبيعية، أو أن عطاءه محدود ومنقطع، أو أن الرزق يُنال بالذكاء والحيلة.

- هداية الله مطلقة جارية في كل الأحوال وتصل إلى أي أحد، ولا يوجد من مشكلة أو شبهة إلا وبيده حلها.

النقيض: أن نظن أن بعض المشاكل والشبهات أو المعضلات غير قابلة للحل.

- هو الذي يربي خلقه من خلال تشريعاته، فالتشريع الحق منحصر به.

النقيض: أن نظن أنه لم يشرع في أي مجال من مجالات الحياة، أو أن شريعته الحقة ناقصة فيحق لغيره التشريع!

- الله محيط بكل شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

النقيض: الظن بأن الله يقف على رأس سلسلة الموجودات بحيث يكون بعيداً عن بعض الأشياء وإن كانت حقيرة جداً!

- الله ذاكر لمن ذكره، فمن استحضر الله في قلبه حضر عند الله حقاً.

النقيض: الظن بأنه تعالى قد لا يسمع بعض دعائنا.

- ما من دعاء إلا ويستجيب له سواء بمثله أم بأفضل منه شرط أن يكون متوجهاً إليه حقاً.

النقيض: الظن بأنه تعالى قد يهمل دعاء أو ذكراً له.

- لا ناصر إلا الله، ولا يقدر أحد على نصرة أحد إلا بإذنه ومشيئته التي هي عين حكمته ورحمته.

النقيض: الظن بأن هناك من له قدرة من دونه عز وجل.

- الله مالك القلوب يحولها ويوجهها كيفما شاء وهو الذي يلقي المحبة فيها أو العكس.

النقيض: الظن بأننا قد نقدر على تحويل قلب إنسان واحد لمصلحتنا أو ضد غيرنا.

- يرجع كل كائن إلى الله ولا يفر منه أحد

النقيض: أن مصير أحد بعيد عن الله تعالى.

- لا يخلف الله أي وعد قطعه لعباده في كتابه وعلى لسان رسله.

النقيض: واضح

- كل علم يهدي إلى الحق منه تعالى.

النقيض: الظن بأننا أسباب أو علل الحصول على المعارف النورانية.

- الله أكبر من أن يوصف بوصف تعقله أذهاننا.

النقيض: الاعتقاد بقدرة العقول على الإحاطة به سبحانه.

- الله أقرب إلينا من أنفسنا

النقيض: أن نظن أننا أقرب إلى أنفسنا منه.

- إذا أراد الله أن يضل إنساناً، فإنه يفعل به ذلك بطريقة لا يمكن أن تخطر على بال أحد. فمكره تعالى عظيم.

النقيض: الظن بأننا بمأمن من المكر الألهي أو أننا حصلنا على ضمانة من الضلالة ولو لثانية واحدة.

- التعرف إلى الله هو الهدف من خلق كل الأكوان.

النقيض: التقليل من شأن معرفة الله وتفضيل شيء عليها.

- كل عز أو ذل بيد الله تعالى.

النقيض: أن نبتغي العزة من سواه.

- لا يهلك الله قوماً يريدون الإصلاح
- لا يمكن رؤية الله بالأبصار
- يستحيل أن يكون لله ولد لأنه مستلزم لنقصه ومحدوديته.
- لا تخلو الأرض من حجة لله تعالى يكون يوم القيامة أساساً للحساب.

النقيض: الظن بأننا سنحتج على الله ونكون معذورين في تقصيرنا في بلوغ

مقام حجة الله.

- النبي محمد بن عبد الله هو خاتم الرسل،فرسالته مشروع الرب الرحيم إلى يوم القيامة.

النقيض: الظن بأن هناك مشروع آخر يمكن أن يهدي البشرية ويخلصها.

- الهدف الكبير للأنبياء إقامة العدل والقسط في العالم.

النقيض: أن نتصور ما هو أهم وأولى للمجتمع البشري من العدالة.

- دين الله واحد وهو الإسلام، والاختلاف في الشرائع والمناهج

النقيض: الظن بأن روح الأديان وجوهرها متفاوت

- أهل بيت النبي والأئمة الإثنا عشر هم حجج الله وقادة المسلمين الشرعيين إلى آخر الزمان.

النقيض: الاعتقاد بشرعية غيرهم في الهداية والقيادة.

- التودد إلى أهل البيت واجب

النقيض: الرد عليهم وأذيتهم جائزة

- أهل البيت قدوة البشر

النقيض: الاعتقاد بأن لغيرهم مقام الهداية إلى الله دونهم

- أهل البيت (ع) لا يقصّرون في تبليغ الأحكام وهداية المجتمع

النقيض: الظن بنقض مدرستهم وقصور في نهجهم

- أهل البيت حافظون للدين والشريعة

- نهج الإمام الحسين في كربلاء هو الخط العام لنهج الإسلام في التعامل مع الحكومات الظالمة

النقيض: الاعتقاد بأن ما قام به الإمام الحسين خاص به.

- أهل البيت يمتلكون المشروع والبرنامج التفصيلي لإصلاح العالم كله.

- سيتحقق هذا الإصلاح على يد الإمام الثاني عشر من أهل البيت

الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

النقيض: عدم الالتفات إلى حركة الإمام ودوره الأساسي

- أهل البيت يعلمون أحكام الله دون اجتهاد منهم أو إعمال للرأي
- أهل البيت معصومون عن ارتكاب الذنوب والقبائح

النقيض: نسبة أي قبح إليهم.

- القرآن الكريم كتاب الحقيقة المطلقة التي فيها النفع الواقعي والمصلحة الأكيدة للحياة البشرية.

النقيض: الظن بأن هناك ما هو أكثر فائدة من القرآن.

- فهم القرآن ميسر للجميع دون اختصاص بفئة.

النقيض: الظن بأن فهم القرآن يحتاج إلى دراسات عليا

- قراءة القرآن شفاء لأمراض القلوب كالكبر والعجب والرياء

النقيض: البحث عن علاج لهذه الأمراض أفضل من القرآن الكريم

- الاستماع إلى القرآن يزيد المؤمنين إيماناً

النقيض: البحث عن الإيمان خارج القرآن

- القرآن معجزة الله الدائمة الحاضرة أبداً

النقيض: عدم الالتفات إلى أن القرآن لا زال معجزة إلهية

- الشريعة الإسلامية هي الطريق الوحيد للوصول إلى الكمال والحق المطلق

النقيض: الظن بوجود طرق أخرى موصلة.

- الشريعة الإسلامية هي البرنامج الوحيد لتزكية النفس وتهذيبها كلياً

النقيض: الظن بوجود برامج أخرى تحقق التزكية الكاملة.

- سيحكم الإسلام وينتشر في كل أرجاء العالم

النقيض: واضح

- عدم تطبيق شرع الله يؤدي إلى فساد العالم

النقيض: الظن بأن الشرائع الأخرى تصلح الحياة

- الشريعة الإسلامية سهلة التطبيق وتقوم على تيسير الحياة البشرية

النقيض: الظن بأن أحكام الله أتت لتعقيد الحياة وزيادتها صعوبة.

- هدف الإسلام النهائي تحقيق السلام الشامل في كل العالم

النقيض: الظن بأن الإسلام قائم على الحرب والقتل.

- يجب اتباع برامج الأنبياء والاقتداء بهم.
- يجب معرفة القيادة الصالحة والانتماء إليها

النقيض: اتباع غير القيادة الشرعية جائز

- تحصيل براءة الذمة عند الله في تطبيق شريعته في هذا الزمان لا يمكن إلا بالرجوع إلى الفقيه العادل الجامع للشرائط.

النقيض: الظن بأن عقولنا وتحليلاتنا تعرّفنا على أحكام الدين دون إعمال القواعد اللازمة.

- سياسة المجتمع وقيادته أهم مهمات الدين الإلهي

النقيض: الظن بأن هناك ما هو أولى وأهم من المسؤولية السياسية.

- ظلم الناس موجب للدخول إلى النار، وتولي القيادة الشرعية طريق النجاة من هذا الظلم.

النقيض: الظن بإمكانية الهروب من ظلم الناس بدون تولي القيادة الشرعية

- سيرى الناس جميع أعمالهم حاضرة يوم القيامة

النقيض: الظن بأن أعمالنا تزول وتختفي مع الوقت

- لن ينتقل أي إنسان إلى العالم الآخر إلا بعد أن تُقام الحجة عليه بشكل كامل، والحجة تقوم على أساس رفض الظالمين.

النقيض: الظن بأن الإنسان معفي من الموقف تجاه الظالمين من حوله.

- تذكر الحياة بعد الموت عامل مهم في صلاح الإنسان

النقيض: الغفلة عن الآخرة يهدئ البال ويبعث الطمأنينة.

- إذا خلا الإنسان ونفسه مال إلى السيئات، ولا نجاة إلا بالله

النقيض: الظن بأننا قادرون بأنفسنا على إصلاح أنفسنا من دون الله

- العدو الأساسي للإنسان هو الشيطان، ولا نجاة منه إلا بالاستعاذة بالله تعالى

النقيض: الظن بأننا قادرون لوحدنا على التغلب على الشيطان

- يظهر الشيطان المعاصي بصورة جميلة وينسي ذكر الله

النقيض: عدم الالتفات إلى ما يقوم به الشيطان من تزيين المعاصي

- اعتصام الإنسان بالله يبدل مكائد الشيطان إلى خير ومصلحة المعتصم.

النقيض: الظن بأن مخططات إبليس تحقق أهدافها مع وجود المعتصمين بالله

- جميع وساوس الشيطان ومكائده هي امتحانات للإنسان

النقيض: الظن بأن وساوس الشيطانية وآثارها في الخارج مجرد شرور وعبث

- يجب تزكية النفس وإصلاحها

النقيض: الظن بأن تزكية النفس أمر مستحب أو أمر خارج عن أهداف الواجبات الشرعية

- الهدف الذي يجب ان يصل إليه الإنسان هو الكمال الذي لا حد له، وهو التعبير عن رحمة الله التي وسعت كل شيء.

النقيض: الظن بأن الكمال المحدود هو غاية الإنسان

- حقيقة الإنسان بروحه لا بجسده

النقيض: حقيقة الانسان منحصرة ببعده المادي المحسوس

- ما أصاب الإنسان من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه.

النقيض: الظن بأن السيئة التي تصيبنا لسنا سببها

- على المسلم ان يعرف أحكام الله فيما يبتلى به في حياته ومسؤولياته.
- وعلى المسلم ان يتعرف على الحقوق التي بيّنها الإسلام في العلاقات والمعاملات الاجتماعية.
- جعل الله تعالى الأمة الإسلامية لتكون الأمة الوسط التي يحتج بها على العالمين

النقيض: الظن بأن غير المسلمين يمكن ان يكونوا حجة على المجتمع البشري ليقتدي بهم في الحكم والسياسة والإدارة وغيرها

- خلق الإنسان على الأرض لاعمارها وإصلاحها

النقيض: الظن بأن خراب الأرض هو المصير النهائي لها.

- يجب احترام الوقت كنعمة إلهية.

النقيض: اضاعة الوقت ليست كفرا بالنعم الإلهية

- الحفاظ على النظام العام للحياة الاجتماعية من أهم المسؤوليات الشرعية

النقيض: الاستخفاف بأنظمة السير والبناء والزراعة و...

- جميع موارد الطبيعة نعم إلهية

النقيض: تلويث الطبيعة ليست كفرا بالنعم

- يجب تعلم الوسائل الدفاعية وكل ما يساعد على أداء التكليف

النقيض: الظن بأن الدفاع عن المجتمع الإسلامي مستحب

- كل إنسان يحشر يوم القيامة مع قيادته السياسية

النقيض: الظن بأنه إذا صلى وصام وحج وزكى لن يحشر مع هذه القيادة

- جوهر العبادة وحقيقتها هو طاعة الله والانقياد له

النقيض: الظن بأن العبادة دون الانقياد والخضوع لله مثمرة.

- البلاء يكشف الإنسان إذا كان مؤمناً حقاً ومستوى إيمانه.

النقيض: الظن بأن المصائب لتضييع الإيمان

- في الاقتصاص من القتلة والمعتدين حياة المجتمع

النقيض: الظن بأن الحبس والسجن سيقضي على الجريمة

- الذين يكتمون الحقائق الإلهية من اجل مصالحهم الفئوية والشخصية مطرودون من جوار الله وجوار المؤمنين

النقيض: يجوز إخفاء البيّنات الإلهية من أجل نصرة المذهب.

- ازدهار المجتمع ورفاهه يتحقق في ظل خشية الله وترك خشية الظالمين

النقيض: الظن بأن الأنظمة الاقتصادية الحديثة ستحل المشاكل الاقتصادية لأي مجتمع.

- الهدف من قتال الظالمين هو القضاء على فسادهم وإفسادهم

النقيض: ان قتال الظالمين لأجل الانتقام والتشفي

- من أهل الكتاب فئة قليلة مؤمنة بالله

النقيض: استبعاد وجود هذه الفئة في عصرنا الحالي.

- وحدة المجتمع الإنساني من أولى الأولويات الاجتماعية.

النقيض: الظن بأن المجتمعات الموحدة يمكن ان تكفر بالله.

- الحياة الدنيا ليست شيئاً يذكر إذا قورنت بالحياة الآخرة

النقيض: النظر إلى الحياة الدنيا مثل الحياة الآخرة

- التوازن في الحياة في كل شيء أساسي لاستمرارها بصورة سليمة.
- الشرك بالله ذنب لا يمكن تبديله إلى حسنة
- تقوى الله هي الشرط الوحيد للقبول والفلاح

النقيض: الظن بأن التخطيط الدقيق والتنفيذ الماهر يوصل إلى الهدف.

- أخطاء بعض المنتمين إلى الخط الصحيح لا تعني ان النهج خاطئ

النقيض: الحكم على النهج من خلال الأفراد.

- لا يستقل مخلوق في فعله، بل كل الأفعال قائمة بمشيئة الله تعالى.

النقيض: الظن بأننا قادرون على أي فعل رغم مشيئة الله.

- الدنيا المذمومة هي المحرمات

النقيض: الظن بأن الأرض بما فيها هي المذمومة

- يستحيل ان يكلفنا الله تعالى بما لا نقدر عليه

النقيض: أن بعض التكاليف الشرعية ـ كالجهاد ـ فوق قدرتنا.

- مع أن التكليف الإلهي متناسب مع الطاقة، لكن البلاء لا يكون كذلك بالضرورة.

النقيض: الظن بأن العقاب والعذاب الكبير لا ينزل بنا لأننا ضعفاء.

- للجن تسلط نفساني ـ خيالي على الإنسان ويوسوسون له ما يريدون.

النقيض: ان الجن يقدر على تحريك شيء في الطبيعة من دون النفوس.

- لو أراد الإنسان ان يعرف نفسه لعرف كل شيء فيها.

النقيض: إننا أحيانا لا نستطيع معرفة بواطننا مهما حاولنا.

- هدف الطواغيت جعل المؤمنين تابعين لهم.

النقيض: الظن بأن الطواغيت يمكن ان يفكروا بمصلحة المؤمنين

- ينبغي معرفة الذنوب الكبيرة التي تؤدي إلى نزول العذاب.
- إتباع الهوى والرأي الشخصي مقابل الحكم الشرعي سبب للسقوط والبعد عن الله تعالى.
- من أهم عوامل النصر في الجهاد ذكر الله كثيراً
- من طلب الدنيا كانت عاقبته جهنم ومن طلب الآخرة وصل إلى الجنة.

النقيض: ان جمع الدنيا والآخرة ممكن.

- الاستغفار والتوبة طريق الخلاص والقوة والازدهار.
- الحسنات يذهبن السيئات

النقيض: عدم تأثير الحسنات على ماضي الإنسان

- أثر الأعمال النافعة يبقى حتى لو أضاعها الناس وجهلوها
- أكثر الناس المؤمنين مبتلون بالشرك.

النقيض: الظن بأن أية درجة من الإيمان تعني زوال الشرك نهائيا من القلب

- التغيير الاجتماعي (سلبا و إيجابا) يبدأ من التغيير في النفوس

النقيض: ان انحطاط المجتمع أو كثرة مشاكله ومصاعبه تأتي من الخارج.

- عدم شكر المنعم يجلب الفقر.

النقيض: ان شكر الله لا يغير الحالة المعيشية.

- ظلم العباد له أثر سلبي حتمي في الحياة الدنيا.

النقيض: ان الظلم قد يؤخر عقابه إلى ما بعد

- تسلط المترفين سبب نزول أنواع العذاب على المجتمع.

النقيض: ان المترفين يمكن ان يكونوا لصالح المجتمع وخيره.

- الهجرة من المجتمع الكافر واجبه.

النقيض: ان المؤمن يمكن أن يحفظ إيمانه ودينه في التعايش مع المجتمع الكافر.

- المؤمنون المصلحون سينالون محبة الناس.

النقيض: ان المجتمعات تكره المصلحين وتجاربهم

- المستضعفون يرثون الأرض ويحكمونها بعد القضاء على المستكبرين

النقيض: ان النصر النهائي للقوى المتجبرة.

- كل من يدّعي الإيمان سيمتحن

النقيض: إمكانية ادعاء الإيمان بدون البلاءات

- عقوق الوالدين وأذيتهما مانع من رضا الله.

النقيض: إمكانية ان توصلنا أعمالنا إلى رضا الله ونحن عاقون لوالدينا

- لا يجوز التودد والإحسان إلى أعداء الله ودينه

النقيض: ان التودد إلى أعداء الله سيردعهم عن فسادهم

- التقوى الاجتماعية سبب الازدهار الاقتصادي غير المحتسب والمخطط له.

النقيض: المجتمع المسلم قادر على الوصول إلى الازدهار من دون تقوى الله.

- المسجد هو مكان التجمع الحقيقي للمؤمنين

النقيض: ان يكون هناك مكان غير المسجد يجتمع فيه المؤمنون على أساس الإيمان والتقوى.

- الحركة الفكرية والبحث والسؤال عن حقائق الوجود هي أحد أهم أهداف نزول القرآن وبعث الرسل.

النقيض: الظن بأن التفكر أمر هامشي في الحياة.

- الثورة على النظام والحكم الفاسد أولى الواجبات الإلهية.

النقيض: ان هناك تكليف أولى من تغيير الحكم الفاسد.

- الملائكة من أعظم مظاهر اتصال الله بالعالم والعالمين

النقيض: يمكن ان يحصل الاتصال بغير الملائكة

- ترك الإنفاق (وأعمال الخير) يؤدي إلى زوال المجتمع وهلاكه.

النقيض: بدون التراحم والإنفاق يقوم المجتمع.

- الإنفاق في سبيل الله ينمي الثروة ويزيدها.

النقيض: ان الإنفاق في سبيل الله يؤدي إلى خسائر.

- لا شيء يمكن أن يقف سداً أمام وصول الفيض الإلهي إلى الإنسان.

النقيض: ان القوى المتجبرة قادرة على حرمان المؤمنين من القدرة والعلم.

- استمرار أي إنسان في الحياة علامة على بقاء الفرصة ليفوز ويفلح

النقيض: ان حياتنا تمر من دون معنى أو فائدة.

- الصبر والشكر أعظم أبواب الهدية والمعرفة

النقيض: بترك الشكر وعدم الصبر يمكن ان يهتدي الإنسان.

- أعمال المؤمنين تعرض على إمام الزمان دائما.

النقيض: ان إمام الزمان عجل الله فرجه معزول عن العالم.

- القاعدون والتاركون للجهاد من دون عذر شرعي غير مؤتمنين

النقيض: تولية التاركين للجهاد يمكن ان تكون بعيدة عن الخيانة.

- أي شيء يفعله الإنسان داخل دائرة الجهاد يعد عملاً صالحاً

النقيض: ان تكون الأعمال المنافية للجهاد والبعيدة عنه من دون عذر صالحة.

- ما من إنسان وإلا ويبتلى في حياته مرة أو مرتين في كل عام.

النقيض: ان يصان الإنسان من البلاء مطلقاً

- لا يمتلك الإنسان أية ضمانة ذاتية تؤمنه من العذاب
- الكثرة والأغلبية ليست من علائم الحق والحقيقة

النقيض: النظام الديمقراطي يهتدي بشكل ذاتي

- لن يدوم حكم الظالمين مهما بلغوا
- جميع النزاعات بين الناس ترجع إلى حب التسلط
- لن يحصل الإيمان إلا بالاختيار الحر.
- من علامات المؤمن انه يرجع ما تشابه عليه في القرآن إلى المحكمات فيه

النقيض: أصحاب القلوب الزائغة والمنحرفة يتمسكون بالمتشابه لتبرير اعتقاداتهم وبرامجهم.

- اشد أنواع الظلم تخريب المساجد وإفراغها.

النقيض: ان تخريب المساجد يمكن ان يمر دون عقاب

- الخسارة العظمى خلو الإنسان من أي كمال حقيقي
- من ينصر الله فإنه منصور حتما

النقيض: قد يتعرض من يريد نصر دين الله إلى الهزيمة

- الكفار مدحورون مهزومون إذا حاربوا أتباع القيادة الصالحة
- التعارف بين الناس أحد أهداف الحياة الاجتماعية على الأرض.
- من يتولى اليهود والنصارى فهو يهودي أو نصراني

النقيض: ان إتباع أمريكا أو إسرائيل يبقي الهوية الإسلامية

- كل مخلوق في هذا العالم آية تدل على الله

النقيض: أن بعض المخلوقات وجودها عبث.

- النظام الربوي يؤدي الى دمار المجتمع وخرابه.

النقيض: ان النظام المالي القائم على المعاملات الربوية يمكن ان يسبب الازدهار الواقعي.

- الإحسان إلى العدو الشخصي يجعله صديقاً حميماً

النقيض: لا بد من رد الإساءة بالإساءة حتى يتوقف المسيء

- الحق منتصر دوماً إذا قُذف على الباطل

النقيض: ان الباطل يمكن ان ينتصر على الحق إذا تصارعا

- زينة الدنيا كلها ليست غاية للإنسان بل هي امتحان له.

النقيض: ان تحصيل زينة الدنيا كمال حقيقي.

- من لا يؤمن في الدنيا قبل الموت لن يؤمن بعد الموت.
- لأهل البيت مقام الشفاعة الكبرى التي أذن الله فيها.

مكتبة
مؤمن قريش

مبادئ العمل الثقافي

لأول مرة إذاً، سيمتلك المستضعفون مؤسساتهم الثقافية معلنين بذلك الخروج عن النزعة الفردية التي حكمتهم طيلة قرون متمادية. سيعملون من اليوم على ترسيخ عقلية المؤسسات التي تهتم بالتخطيط البعيد المدى والاستخدام الأمثل للطاقات والإيمان القوي بالإبداع.

لكن يبدو أن هذه الأمور لوحدها لا تكفي، فالمؤسسة ليست مجرد إرادة وعزيمة، وهي ليست صرحا ماديا بحتا، وليست مجرد إمكانات أو طاقات بشرية؛ إنها قبل كل شيء نظرية ورؤية تنطلق من مبادئ واضحة تتبناها الطاقات العاملة، وتتفاعل على أساسها لوضع الخطط والبرامج وتطبيقها.

من هنا كان هذا الكتاب سعيا للمساهمة في تفعيل الحوار الهادئ والمنطقي لبلورة المبادئ الأساسية في البرامج والأنشطة العلمية، وجعلها منطلقا للأعمال الجماعية التي تشترك فيها أفضل الطاقات.

بيت الكاتب للطباعة والنشر